

مَسِيرَةُ عِلْمِ النَّبَاتِ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنْ مَرَحَلَةِ التَّدْوِينِ اللَّغَوِيِّ إِلَى مَرَحَلَةِ الْمُلَاحَظَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُحَضَّرِ

ابراهيم بن مراد
(تونس)

نعتقد أن ليس من باب المبالغة القول بأن علم النبات لم يلق من الخطوة والاهتمام عند الأمم السالفة ما لقيه عند العرب في القرون الوسطى ، وإن المباحث فيه لم تشهد عند أمة من الأمم السابقة ما شهدته من تطور على أيدي علماء النبات العرب . وليس ذلك في الحقيقة بدعا فهم - بعد مرحلة بداوتهم في الجزيرة العربية - قد انتشروا في الأرض انتشارهم الواسع وتكونت أجيال عربية تلتها أجيال تمكنوا من الاطلاع على مواليد الطبيعة في الأمصار المختلفة والبيئات المتنوعة . وحصلت لهم من ذلك خبره كبيرة بالنباتات ومعرفة جيدة بها .

وقد تحققت لهم من ذلك كله تجربة فذة في علم النبات جعلت منهم السباقين إلى الاهتمام بعلم النبات المحض . ذلك أن غيرهم من الأمم قد اهتموا بعلم النبات ضمن اهتمامهم بعلوم ومباحث أخرى . ونذكر من تلك الأمم خاصة اليونانيين والرومان ، وأهم علماء النبات عند اليونان اثنان : هما تيوفراسطس (Theophrastos...) وديوسقوريدس (Dioscorides) . وقد اهتم الأول بالنبات ضمن اهتمامه بالفلسفة واهتم به الثاني ضمن اهتمامه بالطب والصيدلة . وأهم علماء النبات عند الرومان اثنان أيضاً : هما بلينيوس (Plinius) وابليوس المادوري (Apuleius) ، وقد اهتم به الأول ضمن اهتمامه بعلوم الطبيعة عامة واهتم به الثاني ضمن اهتمامه بالطب والصيدلة . والحقيقة أن العرب أيضاً لم يعنوا طوال مدة لا يستهان بها من تجربتهم العلمية بالنبات لذاته ، بل اهتموا به ضمن مباحثهم في اللغة في البداية ثم ضمن مباحثهم في الطب والصيدلة . إلا أنهم - في القرنين السادس والسابع للهجرة خاصة - قد جعلوا منه علماً مخصوصاً لذاته وعنوا به عناية خاصة فقاموا بالرحلة من أجله بحثاً عن أعيانه في مظانها داخل البلاد العربية الإسلامية وخارجها ، وتدقيق البحث في أنواعه وأجناسه على اختلافها ، حتى تهيأ لهم من معرفته ما لم يتهيأ

لغيرهم من الأمم السابقة ، وذلك ما جعل من تجربتهم في علم النبات تجربة فذة تنزل منزلة متميزة في التراث العلمي الانساني .

وسنحاول في هذا البحث أن نستجلي بعض أوجه تلك التجربة بالحديث عن أربع مراحل من اهتمامهم بعلم النبات : أولاها مرحلة التدوين اللغوي وثانيها مرحلة النقل والترجمة التي مكنتهم من الاطلاع على مباحث اليونان في علم النبات، وثالثها مرحلة الاهتمام الطبي والصيدلي بالنبات ورابعها مرحلة الملاحظة العلمية المحض (١) .

١ - مرحلة التدوين اللغوي :

لقد نشطت حركة التدوين اللغوي في القرنين الثاني والثالث للهجرة خاصة . فقد سعى علماء اللغة في هذه الفترة من تاريخ اللغة العربية الى جمع المتفرق من مفردات اللغة وخاصة منها الدالة على الأشياء وصفاتها . وتجمع لهم من ذلك عدد كبير من الرسائل في مواضيع شتى كالحیوان - مثل الابل والشاء - والانسان والمطر والسحاب والبئر . الخ وقد كان النبات من أهم المواضيع التي شغلتهم فأفردوه برسائل مستقلة غلب فيها الجمع وقل فيها الترتيب المنهجي الدقيق . واللغويون الذين الفوا في النبات كثيرون (٢) . نذكر منهم خاصة الأصمعي (ت: ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م) مؤلف « كتاب النبات » و أبا زيد الانصاري (ت ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م) الذي ينسب اليه كتاب « النبات والشجر » وابن الاعرابي (ت ٣٢١ هـ / ٨٤٥ م) الذي نسب اليه كتاب « النبات » وكتاب « آتبت والبقل » ، وابن السكيت (ت : ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م) الذي نسب اليه كتاب « النبات والشجر » وأبا حاتم السجستاني (ت : ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) الذي نسب اليه كتاب « العشب والبقل » وكتاب « الشجر والنبات » . الخ .

والغالب على مؤلفات هذه الفترة - النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الهجريين - صفة الرسائل ، والغالب على مؤلفيها الرغبة في جمع اللغة وتدوين مفرداتها المتصلة بالنبات وصفاته . فعمل هؤلاء يمثل اذن - في أساسه - مرحلة جمع مفردات « المعجم النباتي » العربي . ولما كانت غايتهم لغوية محضاً لم ينعنوا بالبحث عن النباتات في مظانها ولم يهتموا بالبحث في أصناف النبات وأنواعه وأجناسه ولم يحاولوا استيعاب ما في البيئة العربية من نباتات بل اكتفوا بتدوين ما بلغهم من الرواة وذكره الشعراء في قصائدهم . وكمثل لمؤلفات هذه الفترة كتاب « النبات » للأصمعي ، وهو رسالة صغيرة (٣) جمع فيها مؤلفها حوالي ثلاثمائة اسم من أسماء النباتات العربية . ولكن معظم هذه المفردات قد ذكرغفلا من التعريف . ويبدو أن غاية المؤلف الأساسية من رسالته هي جمع « مادة نباتية » مما تنبته أرض الجزيرة العربية . وغلب عليه في ذلك الجمع ثلاثة اهتمامات بارزة : أولها التعريف اللغوي بالأرض المنبئة (٤) ، وثانيها التفريق بين النبات والشجر (٥) وثالثها التوزيع الجغرافي لبعض أنواع النبات (٦) على أن حديثه عن هذه الأغراض الثلاثة كان متداخلا غير خاضع لترتيب معين ، غالباً عليه الاستطراد اللغوي والشواهد الشعرية على طريقة أهل العصر في التأليف وذلك ما يجعل - في نظرنا - قيمة

هذه الرسالة وأمثالها لغوية محضة، ولا تتجاوز ما ابتغاه واضعوها من جمع اللغة وتدوين متفرقاتها في موضوع مخصوص هو النبات .

على أن القرن الثالث الهجري قد شهد ظهور كتاب آخر جليل القدر عظيم الخطر في تاريخ علم النبات عند العرب ، هو « كتاب النبات » لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت : ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) وهذا الكتاب لم يكن مجرد رسالة في صفات النبات وأسمائه بل كان موسوعة نباتية في حوالها ستة أجزاء أربعة منها في موضوع النبات عامة واثنان في أسماء النباتات مرتبة على حروف المعجم ، وقد ضاع معظم هذا الكتاب ولم يبق منه إلا بعضه نخص بالذكر منه قسماً مهماً من الجزء الخامس يحتوي معجم أسماء نباتية (٧) ، إلا أن معظم مواد هذا المعجم قد بقي لنا في كتب العلماء اللاحقين في الزمن لأبي حنيفة ، فقد كان « كتاب النبات » مصدراً أساسياً لما اهتم به بعد أبي حنيفة بالنبات فاقتبس منه مؤلفو المعاجم اللغوية والأطباء والصيداء والمؤلفون في الأدوية المفردة ، وقد قام العالم الهندي محمد حميد الله بجمع المتفرق من مواد الكتاب في تلك المصادر (٨) وقد حصل له من ذلك ٦٣٨ مادة أضافها إلى ما نشره من قبل المستشرق برنارلويين .

والناظر في هذا المعجم يتبين بيسر انتماءه إلى المرحلة اللغوية فالمصادر الأساسية التي اعتمدها فيه أبو حنيفة لغوية، وخاصة الرواة من الأعراب ، وعلماء اللغة ، مثل أبي زياد الأعرابي يزيد بن عبد الله الكلبي (٩) الذي يتنزل بين مصادره منزلة خاصة ، والفراء (ت : ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م) وأبي عبيدة (ت : ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م) والأصمعي (ت : ٢١٤ هـ / ٨٢٨ م) وأبي زيد الأنصاري (ت : ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م) وأبي عبيد (ت : ٢٢٤ هـ / ٨٣٩ م) وابن الأعرابي (ت : ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م) وأبي نصر أحمد بن حاتم (ت : ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م) الخ ثم أنه قد نحا نحو سابقه من علماء اللغة في التمثيل بالشواهد ، فهو يكثر من إيراد الشواهد أكثر مما ظاهر (١٠) ومعظمها من الشعر - ديوان العرب - وبعضها من القرآن والحديث النبوي الشريف (١١) . وهو يكثر من الاستطراد إما لتفسير شاهد شعري أو للبحث في اشتقاقات المفردة المتحدث عنها أو للتعليق على قول مروي بقول مروي آخر ، بل إن الاستطراد عنده قد يكون بالاسترسال في الحديث عن موضوع جديد يقحمه في المادة التي يتحدث عنها اقحاماً دون أن يكون له بها علاقة ، مثل الذي فعل في مادة (أثل) حيث تحدث عن « الألوان والصحاف » مبتدئاً استطراده بقوله :

« واذا قد جرى ذكر الألوان والصحاف فسنصف منها ما يحضرنا ذكره » (١٢) . على أن أبا حنيفة قد تجاوز سابقه من المؤلفين في المادة النباتية تجاوزاً كبيراً فهو ينتمي إلى مدرستهم اللغوية بدون شك ، ولكنه قد أضاف إلى مناهج سابقه إضافات مهمة أخرجت كتابه من حيز الاهتمام اللغوي الضيق إلى ميدان الدراسة العلمية الشاملة . ولا شك أن لتبحر أبي حنيفة دوراً في ذلك . فهو لم يكن مجرد جامعة للأخبار والنوادر والأشعار والمتفرق من شتات مفردات اللغة مثل الذي كانه معظم سابقه ، بل كان عالماً موسوعياً قد

عني - اضافة الى علوم اللسان - بعلوم أخرى مستجدة في عصره ، وخاصة الحساب والفلك والطب والتاريخ والجغرافيا وعلم النبات (١٣) . وهذا التعدد في المعارف قد جعل أبا حنيفة في نظرنا أوسع أفقاً من سابقيه وأعرف منهم بموضوع النبات . وظهر ذلك واضحاً في كثير من الجوانب الجديدة التي تميز بها كتابه على الكتب التي ألفها اللغويون من قبله . وتتلخص تلك الجوانب فيما يلي :

أ - حجم الكتاب : فهو كتاب كبير الحجم متعدد الأجزاء بينما كان معظم المؤلفات الأخرى رسائل صغيرة .

ب - ترتيب المادة فقد كانت المؤلفات السابقة غير خاضعة في معظمها لترتيب معين ، على حين أخضع أبو حنيفة كتابه لنوعين من الترتيب :

أولهما : الترتيب الموضوعي ، فهو قسم الأجزاء الأربعة الأولى من كتابه الى أبواب مستقلة خص بكل باب موضوعاً مستقلاً من مواضيع النبات والمواضيع المتصلة به . أحال في القسم الأول من معجمه الى عدد كبير من تلك الأبواب نذكر منها « بات النباتات العام » (١٤) باب وصف العشب (١٥) وباب ذكر جماعات الشجر (١٧) وباب الزرع (١٨) وباب الزرع مع القطاني (١٩) وباب النخل (٢٠) وباب الكرم (٢١) وباب الكماة (٢٢) وباب النبات الطيب الرائحة (٢٣) وباب العلوكة (٢٤) وباب اللثا والصبوغ (٢٥) وباب ما يصنع من النبات (٢٦) . الخ .

ثانيهما : أسماء أعيان النبات على حروف المعجم في الجزأين الأخيرين الخامس والسادس من الكتاب .

أشار الى هذا الترتيب في مقدمة معجمه - وحذفها المحقق لسبب لم يبين عنه واكتفى بذكر مقتطف منها في تمهيده - بقوله : « ونجعل تصنيف ذلك على توالي حروف المعجم كما تواليها العامة ان شاء الله ، وتصنيفها على حروف أوائلها أحب الي من تصنيفها على حروف أواخرها . وانما آثرنا هذا التصنيف لأنه أقرب الى وجدان المطلوب وأهون مؤنة على الطالب من كل تصنيف سواه فيما نرى (٢٧) . الا أن هذا الترتيب المعجمي شديد الاضطراب كثير الاختلال المنهجي ، ذلك أن المؤلف لم يراع الا الحرف الأول من الكلمة وأهمل تتابع الحروف التالية له ، وهذا ترتيب المواد العشرين الأولى من حروف الألف : ١ - اراك ، ٢ - أسحل ، ٣ - أثاب ، ٤ - اثل ، ٥ - أرز ، ٦ - أشكل ، ٧ - آء ، ٨ - ألاء ، ٩ - ارطي ، ١٠ - آس ، ١١ - أستن ، ١٢ - اخريط ، ١٣ - افان ، ١٤ - اقحوان ، ١٥ - ايهاقان ، ١٦ - اسليح ، ١٧ - اعليط ، ١٨ - احريض ، ١٩ - اغريض ، ٢٠ - أجرد .

ج - التعريف العلمي : فقد تجاوز ظاهرة التعريف بالترادف أو بنسبة النبات الى نوعه أو الى موضع نمبته الى التعريف العلمي الدقيق بوصف النبات وصفاً دقيقاً ووصف ثمره وطعمه ورائحته . وهذا النوع من التعريف دال في رأينا على أن أبا

حنيفة يمثل بداية الاهتمام بالملاحظة العلمية المحض في دراسة النباتات . ونذكر من أمثلة هذا النوع من التعريف قوله في مادة « حلمة » ترتفع الحلمة دون الذراع ، ولها ورقة غليظة ، وأفتان كثيرة وزهرة مثل شقائق النعمان الا انها أكبر وأغلظ والحلمة كثيرة البراعم والافتان كأن براعيميها حلم الضروع والفرق بينها وبين شقائق النعمان ان نورة شقائق النعمان ترتفع في رأس قضيب طويل أجرد ، وليس بشجرة الشقائق من كثرة البراعم مثل ما للحلمة (٢٨) ، وقوله في مادة « رقع » : الرقع شجرة عظيمة كالجوزة ، ساقها كساق الدالية ، ولها ورق كورق القرع أخضر فيه صهبه يسيرة ، ولها ثمر أمثال التين المعظام كأنه صفار الرمان ، لا ينبت في أضعاف الورق كما ينبت التين ولكن من الخشب اليابس يتصدع عنه ، وله معاليق وحمل كثير جدا (٢٩) .

د - حديثه عن منافع النبات : وهي صنفان ، عامة وخاصة . أما المنافع العامة فمتصلة باستعمال النبات المتحدث عنه في الحياة العامة . وقد خص المؤلف تلك المنافع بأبواب مستقلة في الأجزاء الأولى من الكتاب ، مثل « باب السواك » (٣٠) و « باب الدباغ » (٣١) و « باب القسي » (٣٢) و « باب ما يصيب به من النبات » (٣٣) . الخ وقد أعاد الحديث عن تلك المنافع - وكثير غيرها - عند تعريفه بأعيان النبات في معجمه . أما المنافع الخاصة التي اهتم بها أبو حنيفة فمتصلة بالمداداة والعلاج خاصة . وهو باب جديد قد أدخله هو في كتب اللغة اذ لا نعرف الى حد الآن عالماً لغوياً آخر ممن ألفوا في النبات قد اهتم به على أن اهتمام أبي حنيفة أيضاً لا يتجاوز بعض الاشارات الصغيرة . نذكر من ذلك مثلاً قوله عن « أسحار » أن له حباً يؤكل ويتداوى به ، وفي ورقه حروفة لا يأكله الناس ولكنه تاجح في الابل (٣٤) وقوله عن « الايدع » أنه « تداوى به الجراحات » (٣٥) ، وقوله عن « أم وجع الكبد » أنها سميت بهذا الاسم « لأنها شفاء من وجع الكبد والصفراء » اذا غص بالشرسوف يسقى من عصيرها (٣٦) ، وقوله عن « الاسحقان » أنه غير صالح للرعى « ولكن يتداوى به من النسا » (٣٧) . الخ .

وما يمكن استنتاجه مما سبق هو أن أبا حنيفة قد طور التأليف في كتب النبات اللغوية وأدخل عليه منهجاً جديداً لم يكن متعارفاً من قبله عند علماء اللغة . وأهم سمات ذلك المنهج الجديد احلال أبي حنيفة في كتابه ما نريد تسميته ب « الفقرة النباتية » ونعني بالفقرة النباتية التعريف المتكامل بالنبات ، وهي مما اختصت به كتب الأطباء والصيادلة المؤلفات في الأدوية المفردة وقد ركزها هؤلاء على أركان قارة متفاوتة العدد من عالم لآخر ، وقد ظهر منها في كتاب أبي حنيفة أربعة أركان : أولها التعريف اللغوي المحض ، وثانيها التعريف العلمي بخصائص النبات ، وثالثها التعريف بمنافعه ، ورابعها التعريف بمواضع نباته . ونذكر من الفقرات « التامة » عنده ما أورده في مادتي « ثيل » و « حناء » : فقد عرف النبات الأول بقوله قال أبو عمرو : الثيل يقال له النجم ، والواحدة نجمة (٥٠٠) ، وقال بعض الرواة : الثيل نبات يشبك الأرض (٥٠٠) ورقه كورق البير الا أنه أقصر ونباته فرش على الأرض يذهب ذهاباً بعيداً ، ويشتبك حتى يصير على الأرض كاللبدة ، ولذلك سمي الوشيج (٥٠٠) وله عقد كثيرة وأنايب قصار ، ولا يكاد ينبت الا على ماء أو في موضع تحته

ماء ، وهو من النبات الذي يستدل به على الماء (٣٨) ، وعرف النبات الثاني بقوله : « حناء » : واحدته حناء ، وبه سمي الرجل حناء ، وأصله الهمز (٠٠٠) وشجر الحناء شجر كبار مثل شجر السدر ، وللحناء فاغية وهي نورته ، وبزره عناقيد متراصفة اذا تفتحت أطرافها شبهتها بما ينفتح من الكزبرة الا أنها طيبة الرائحة ، واذا تحات نوره بقيت له حبة غبراء صغيرة أصغر من الفلقة (٠٠٠) وشجره يورق في العام مرتين ، أي يؤخذ ورقه ، والحناء بأرض العرب كثير . فاما الخضاب فقد وصفناه في باب ما يختضب به من النبات « (٣٩) » .

على أن هذه الطريقة لم تكن - فيما يبدو لنا - من ابتكار أبي حنيفة . فهي قد ظهرت لأول مرة في كتب الأدوية المفردة ، وأول كتاب - حسب علمنا - عرف فيه العرب هذه الطريقة هو كتاب «المقالات الخمس» - ويسمى أيضاً «كتاب الحشائش» لديوسقوريدس ، وقد نقل هذا الكتاب الى العربية في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة ، وقد كان له أثر واسع فيما آلف العرب في الأدوية المفردة منذ القرن الثالث . وليس غريباً من عالم موسوعي مثل أبي حنيفة أن يسعى الى الاطلاع على تلك المؤلفات وأن يقتبس منها . ولعل أصدق دليل على ذلك ميله الى ذكر الخصائص العلاجية لبعض النباتات ، ثم اشارته في احدى مواد كتابه الى « المتطبيين » - وهم الأطباء - فقد قال عن «العنصل» - فيما رواه عنه ابن البيطار - : « ويعظم حتى يكون مثل الجمع ، ويقع في الدواء ، ويقال له العنصلان أيضاً ، وأصوله بيض (٠٠٠) والمتطبيون يسمونه «الاشقيل» (٤٠) الا أن هذا الاقتباس من الكتب الأخرى لا ينقص من أهمية أبي حنيفة وكتابه في تاريخ علم النبات عند العرب ، ولو لم يكن له الا فضل جمع المادة النباتية العربية وتبويبها تبويماً علمياً منهجياً لكفاه ذلك فخراً .

٢ - مرحلة الترجمة :

لقد عني العرب من بين ما عتوا به من العلوم الأعجمية بعلم النبات ، ولكن عنايتهم به تعتبر ضئيلة اذا قيست بما أولوه للطب والفلسفة من عناية . فالكتب النباتية الأعجمية التي وصلتنا ترجماتهم لها نادرة جداً ، ولا يبلغ عددها الخمسة وهي :

أ - كتاب « النبات » لأرسطو : قد وصفه اليعقوبي (ت : بعد ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م) في « تاريخه » وقال عنه انه « في الابانة عن علل النبات وكيفياته وخواصه وعوامه وعلل أعضائه والمواضيع الخاصة به وحركاته » (٤١) ولكن يبدو أن العرب لم ينقلوا هذا الكتاب بل نقلوا تفسيره الذي وضعه نيقولاوس الدمشقي ، وقد نقل هذا التفسير اسحاق بن حنين وأصلحه ثابت بن قره (٤٢) بعنوان « تفسير كتاب أرسطاطاليس في النبات » .

ب - كتاب « أسباب النبات لثاوفر اسطس » : (٣٧٢ - ٢٨٧ ق.م) وهو كتاب يبحث في الفروق بين النباتات ، اعتماداً على فلسفة أرسطو ، وقد عرب هذا الكتاب ابراهيم بن بكوس (٤٣) .

ج - كتاب « في النبات » لجالينوس : ولا نعرف عن هذا الكتاب وترجمته العربية شيئاً لانه قد ضاع ولم يبق الا في ترجمة لاتينية موضوعة عن النص العربي (٤٤) .

د - كتاب « الحشائش » ثديوسقوريدس : (من القرن الأول الميلادي) ويسميه العرب كتاب « الخمس مقالات » ايضاً ، لانه مقسم الى خمس مقالات ، وهو في الحقيقة ليس كتاباً خالصاً في النبات بل هو في الادوية المفردة قد تحدث فيه مؤلفه عن المنافع العلاجية لعدد هائل من المواد المنتمية الى الموالييد الثلاثة ، النبات والحيوان والمعادن ، الا أن حظ المادة النباتية كان أغلب ، ولذلك سمي بكتاب الحشائش . ومؤلفه - ثديوسقوريدس - قد عرف نباتيا قبل اي شيء آخر ، فقد احتوى كتابه على حوالي ٥٠٠ نبات جديد . وقد أعانه على اكتشاف هذا العدد الكبير من النباتات ترحاله الطويل وخاصة في رفقة الجيش الروماني الذي عمل معه - فيما يبدو - جندياً طبيبياً حوالي ثلاثين سنة (٤٥-٧٥ م) . وقد حظي كتابه بمنزلة رفيعة بين اليونانيين أنفسهم ، فقد قال فيه جالينوس : تصفحت أربعة عشر مصحفاً في الادوية المفردة لأقوام شتى فما رأيت فيها أتم من كتاب دياسقوريدس (٥٠٠) وعليه احتذى كل من أتى بعده وخلفه علماء نافعاً واصلاً جامعاً (٤٥) .

لقي الكتاب حظوة كبيرة عند العرب ، فنقله حنين بن اسحاق (ت : ٢٦٦ هـ - ٨٧٣ م) الى اللغة السريانية ، ثم اعتنى به اصطف بن بسيل - وهو أحد تلاميذ حنين - فنقله الى العربية من اللغة اليونانية مباشرة ، الا أن ترجمة اصطف لم تكن جيدة فأعاد فيها حنين نفسه النظر وأجازها ، وقد كان ذلك في زمن الخليفة جعفر المتوكل (٢٤٢ هـ / ٨٤٧ م - ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م) (٤٦) ، الا أن هذه الترجمة - رغم مراجعة حنين لها - قد بقيت تثير مشاكل جمّة ، وخاصة في مستوى المصطلحات ، ذلك أن كثيراً من الادوية المفردة التي تضمنها الكتاب يونانية محض ليس لها مقابلات في اللغة العربية فكان نقلها الى العربية - لذلك - غير ممكن . ثم ان من مصطلحات الكتاب ما له مقابل في العربية لكن المترجمين يجهلونه فكانا في مواضع كثيرة من الترجمة يكتفیان برسم المصطلح اليوناني بأحرف عربية راجين أن يأتي بعدهما من يستطيع اكتشاف المصطلحات العلمية العربية المؤدية للمصطلحات اليونانية المستعصية عليهما (٤٧) . وقد لخص ابن جلجل الأندلسي ، فيما رواه عنه أبي أصيبعة ، هذه المشكلة بقوله : ان كتاب ديسقوريدس ترجم بمدينة السلام في الدولة العباسية في أيام جعفر المتوكل وكان المترجم له اصطف بن بسيل المترجمان من اللسان اليوناني الى اللسان العربي . وتصفح ذلك حنين بن اسحاق المترجم فصيح الترجمة وأجازها . فما علم اصطف من تلك الأسماء اليونانية في وقته له اسما في اللسان العربي فسرّه بالعربية ، وما لم يعلم له في اللسان العربي اسماً تركه في الكتاب على اسمه اليوناني ، اتكالا منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسرّه باللسان العربي (٤٨) .

فالكتاب - اذن - في ترجمته العربية لم يكن سهل التناول لما يشهه من مشاكل في المستوى اللغوي الاصطلاحي خاصة . فقد بقي فيه عدد هائل من النباتات مجهولاً . وقد بقي تأثير الكتاب - لذلك - محدوداً في كتب الطب والصيدلة العربية طيلة القرنين الرابع والخامس الهجريين ، وكان المؤلفون في الادوية المفردة حذرين في الاعتماد عليه خشية الوقوع في

الخطأ . وذلك يعني أن نباتات كثيرة مما دخل الثقافة العربية عن طريق الترجمة بقيت غريبة مجهولة لم ينتفع بها ولم تأخذ حيزها في المعجم النباتي العربي الذي كان أبو حنيفة قد وضع أسسه . إلا أن العلماء العرب لم يقفوا موقف العجز أمام تلك المشاكل بل واصلوا الاهتمام بالكتاب وبترجمته البغدادية خاصة ، لرفع قناع العجمة عما بقي فيه مجهولاً من أعيان النبات خاصة . وقد كثرت - من أجل ذلك - مراجعات الترجمة البغدادية وشروحها - اعتماداً على الأصل اليوناني أحياناً - منذ النصف الأول من القرن الرابع للهجرة (٤٩) . وأهم تلك المراجعات إطلاقاً هي المراجعة التي تمت في الأندلس بعد أن اهتدى ملك القسطنطينية إلى الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر سنة ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م نسخة يونانية محلاة بالرسوم والصور من «كتاب الحشائش» ثم أرسل نفس الملك بطلب من الخليفة الأموي عالماً اسمه نقولا الراهب يجيد اللسانين اليوناني واللاتيني لاعانة علماء قرطبة على الاستفادة من تلك النسخة اليونانية الجيدة للكتاب وقد آقبل أولئك العلماء على الترجمة البغدادية يعيدون النظر فيها ويصححون أخطاءها ويزيلون العجمة عما بقي فيها مجهولاً من أعيان النبات خاصة . وقد لخص ابن جلجل - وقد كان أحد المراجعين - فيما رواه عنه ابن أبي أصيبعة النتائج التي انتهت إليها تلك الجماعة بقوله : « فصح ببحث هؤلاء الثفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس ما أزال الشك فيها وأوجب المعرفة بها بالوقوف على أشخاصها وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف إلا القليل منها الذي لا بال به ولا خطر له ، وذلك يكون في مثل عشرة أدوية (٥٠) إلا أن هذه المراجعة - على أهميتها - لم تحل القضايا الاصطلاحية المتبقية في الترجمة البغدادية حلاً جذرياً وفعلياً ، لأن أصحابها - وإن لم يستعص عليهم إلا حوالي عشرة مصطلحات يونانية كما ذكر ابن جلجل - كانوا يلجأون في معظم الحالات إلى « تعريب » المصطلحات الأعجمية اليونانية بمصطلحات أعجمية أخرى لاتينية بربرية ذلك ما جعل الانتفاع بها محدوداً لا يتجاوز بلاد الأندلس والمغرب وجعل الكتاب في حاجة إلى مزيد من الشرح والتعريب .

وقد تصدى لتلك المهمة - فعلاً - ثلاثة من جلة علماء الأندلس هم **ابن جلجل** (ت : بعد ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م) في كتابه « تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدوس » وقد استفاد فيه من المراجعة الأندلسية خاصة فكان صدق لها ، ثم أبو العباس **أحمد بن محمد النباتي** (ت : ٦٣٧ هـ / ٢٣٩ م) في كتابه « شرح أدوية دياسقوريدوس وجالينوس والتنبيه على أوهام مترجميها » ، ثم **ابن البيطار** (ت : ٦٤٦ هـ / ٢٤٨ م) في كتابه « تفسير كتاب ديسقوريدوس » وآخر هذه الكتب الثلاثة كان أهمها لأسباب ثلاثة : أولها تمكن ابن البيطار من مادة « كتاب الحشائش » تمكناً لم يبلغه أحد من قبله بشهادة تلميذه ابن أبي أصيبعة الذي قال فيه « وأتقن دراية كتاب ديسقوريدوس اتقاناً بلغ فيه إلى أن لا يكاد يوجد من يجاريه فيما هو فيه » (٥١) ، وثانيها وقوفه على أعيان النباتات التي ذكرها ديسقوريدس في مواضعها وتحققه من أسمائها العربية في البلاد العربية نفسها أثناء رحلته العلمية الطويلة التي زار فيها بلاد اليونان وآسيا الصغرى وبلاد فارس ، إضافة إلى كامل البلاد العربية ، وثالثها كونه آخر الشارحين ، وذلك يعني استفادته من أعمال سابقيه الذين تناولوا « كتاب الحشائش » بالمراجعة والشرح . والمقدمة التي وضعها ابن البيطار لكتابه تبين

أن المشاكل التي يثيرها كتاب ديوسقوريدس قد بقيت قائمة حتى القرن السابع الهجري ، فقد قال : « لما وقفت من كتاب الفاضل ديوسقوريدوس على ما تقصر عنه هم جماعة من المتشوفين ورأيت استعجام أسماء أشجاره وحشائشه على كافة المتعلمين وعامة الشادين وتواري حقائقه على غير واحد من الشجارين والمتطبيين عزمت بعون الله تعالى على تقريب المرام في ترجمته وتسهيل المطلب في تفسير أسماء أدويته لأكشف عن وجه مقاصده قناع « عجمته وأبرزه كالبدر في هالته » (٥٢) وقد تمكن ابن البيطار - فعلاً - اعتماداً على تجربته العميقة في دراسة النبات ومعرفته الواسعة بأعيانه من كشف قناع العجمة عن جلّ المصطلحات اليونانية التي بقيت مجهولة في ترجمة اصططن اوحنين بعد أن اكتشف تلك النباتات في البلاد العربية فعرّبها بالأسماء العربية التي تعرف بها ، ولم يستعص عليه الا عدد ضئيل من النباتات لا يتجاوز الخمسة .

وأهم النتائج التي نخرج بها عن مرحلة الترجمة هذه :

أ - أنها كانت مرحلة اتصال بين الثقافة النباتية العربية والثقافات الأعجمية ممثلة في الثقافة اليونانية ، وقد أفادت منها الثقافة العربية ايما افادة بالأخذ عن الثقافة اليونانية والاقتباس منها ، فتعرّف العرب أثناءها على نباتات جديدة اضافوها الى زادهم النباتي الذي كان أبو حنيفة من قبل قد عرف به ، فهي اذن مرحلة اقتباس وازافة .

ب - ان هذه المرحلة لم تتوقف في القرن الثالث للهجرة بترجمة كتاب ديوسقوريدس بل تواصلت حتى القرن السابع بتناول هذا الكتاب بالمراجعة والشرح حتى أصبح على صورة مثلى في القرن السابع على يد ابن البيطار .

ج - ان هذه المرحلة كانت علمية لأن العرب قد تعرفوا - اعتماداً على ديوسقوريدس - على الخصائص العلمية والمنافع الطبية لنباتات كثيرة توجد على أرضهم ، الا أن الجانب اللغوي الاصطلاحي فيها كان كبيراً أيضاً لا يستهان به ، ولذلك يمكن اعتبارها مواصلة للمرحلة الأولى - اللغوية - التي كان أبو حنيفة أحسن ممثل لها .

٣ - مرحلة الاهتمام الطبي بالنبات :

يعتبر النبات أهم المواليد الثلاثة في صناعة الأدوية لأنه أكثر تعدداً وتنوعاً وأيسر منالاً . ولذلك كبر اهتمام الأطباء والصيدالة العرب به . فلم يغفل كتاب من كتبهم من الحديث عن منافعه ، وخاصة فيما أسموه بالأدوية المفردة . الا أن الحديث عن الأدوية المفردة لم يكن دائماً مستقلاً عن الحديث العام في الطب والصيدلة بل كان جزءاً منه يفرد بباب خاص ضمن أبواب أخرى تتصل بالطب والصيدلة عامة . وقد بدأت هذه الطريقة عند العرب منذ القرن الثالث الهجري وتواصلت حتى القرن الثاني عشر . فهي الطريقة التي اتبعها علي بن ربن الطبري (ت: بعد ٢٤٠هـ / ٨٥٥ م) في كتابه « فردوس الحكمة » الذي خصص الباب الأول من المقالة الثانية من النوع السادس منه للأدوية المفردة والمقايير النباتية ، وأبو بكر محمد بن زكرياء الرازي (ت : ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م) في الكتاب

الحاوي » الذي جعل القسم السابع منه « في صيدلة الطب » وأبو القاسم الزهراوي (ت: ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م) في كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » الذي خصص بابيه التاسع والعشرين للأدوية المفردة ، وأبو علي بن سينا (ت: ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م) في كتابه « القانون » الذي خصص الباب الثاني منه للأدوية المفردة . وقد تواصلت هذه الطريقة حتى وقت متأخر إذ نجدها متبعة في « تذكرة أولي الألباب » للشيخ داود الانطاكي (ت: ١٠٠٨ هـ / ١٥٩٩ م) الذي خصص الجزء الأول من كتابه للأدوية المفردة ، وفي كتاب « الجوهر المكنون من بحر القانون » لعبد الرزاق بن حمادوش الجزائري (ت: ١١٦٨ هـ / ١٧٥٤ م) الذي تحدث في الجزء الرابع من كتابه عن الأدوية المفردة .

وهؤلاء العلماء وأمثالهم ممن عنوا بالأدوية المفردة عناية جزئية - لم يكونوا صيادلة ولا علماء نبات . لذلك غلب عليهم في أحاديثهم عن النباتات الاقتباس من غيرهم، والاهتمام بمنافع النباتات العلاجية أكثر من الاهتمام بالنباتات في حد ذاتها .

على أن الكتب المستقلة المؤلفة في الأدوية المفردة كانت أكثر عدداً ، وقد بدأت في الظهور هي أيضاً منذ القرن الثالث للهجرة . ويبدو أن أول من ألف كتاباً مستقلاً فيها هو اسحاق بن عمران (ت: ٢٩٤ هـ / ٩٠٧ م) العراقي ثم الافريقي التونسي ، فقد وضع هذا العالم الفيلسوف كتاباً بعنوان « الأدوية المفردة » (٥٣) ، وقد ضاع هذا الكتاب ولم تبق منه الا شواهد أخذها عنه أحمد الغافقي في كتابه « الأدوية المفردة » وابن البيطار في كتابه « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » وجملة الشواهد الواردة منه عند ابن البيطار ١٨٠ في ١٦١ مادة ، ثلاثة عشر منها في التعريف اللغوي أو التعريف بخصائص الأدوية واثنان وعشرون في النبات والادوية وستة وثلاثون في النبات ، وأربعة عشر ومائة في الادوية والعلاج (٥٤) . وأهم ما يستنتج من تلك الشواهد : ان ابن عمران كان يبنى مواد كتابه على اركان أساسية : أولها التعريف اللغوي وثانيها ذكر طبيعة النبات من حيث القوة والدرجة من الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة وثالثها وصف النبات وصفاً علمياً دقيقاً ، ورابعها ذكر خواصه العلاجية من حيث المنافع والمضار ، وخامسها ذكر ايداله في حال انعدامه . ثم ان ابن عمران أدخل في كتابه نباتات جديدة كثيرة مما تعرف عليه في بلاد المشرق قبل مجيئه افريقية ، ولم يعرفه اليونانيون من قبله ، مثل الازريون والبهمن والحماحم والخيارشنبر والريباس والشاهسفرم والصندل والقاقلي والقرنفل والمحلب . . . الخ الا أن هم ابن عمران الأكبر من حديثه على النباتات - القديمة والجديدة - كان البحث في منافعها الطبية فغلب على تعريفاته النباتية الايجاز والاختصار .

وقد تواصل التأليف في الأدوية المفردة والحديث عن النبات فيها في القرون التالية للقرن الثالث - حتى القرن السادس - على طريقة اسحاق بن عمران وخاصة في بلاد المغرب والأندلس . ومن أهم الكتب التي ظهرت في هذه المدة كتاب « الاعتماد في الأدوية المفردة » لابن جعفر أحمد بن الجزار القيرواني (ت: ٣٦٩ هـ / ٩٨٠ م) وكتاب « الأدوية المفردة » لحامد بن يمخون (ت: ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ م) وكتاب « الصيدلة » لأبي الريحان

البيروني (ت: ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) وكتاب « الأدوية المفردة » لأبي المطرف عبد الرحمن بن وافد (ت: بعد ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م) والكتاب الأول من بين هذه الكتب - أي كتاب « الاعتماد » - يستحق أن نقف عنده قليلاً لأهميته التاريخية والعلمية . فقد ألفه ابن الجزار قبل سنة (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) وكان غرضه من تأليفه اتمام أوجه النقص عند سابقه ممن تحدث في الأدوية المفردة ، من القدماء - أي اليونانيين - والمحدثين ، ويعني بهم العرب وقد لخص ابن الجزار أوجه النقص عند سابقه في مقدمة كتابه بقوله : « ان معرفه الأدوية المفردة ومنافعها باب عظيم القدر جليل الغطر في صناعة الطب ولم ار لاحد من الأوائل المتقدمين ولا لمن تشبه بهم وقفا آثارهم من المتعقبين في ذلك كتاباً جامعاً مرضياً ولا كلاماً شافياً بحسب ما يجب أن يؤلف في هذا الباب الكريم المنفعة العظيم الفائدة في معالجة الأسقام والأدواء الا الرجل الذي يسمى دياسقوريدوس ، وجالينوس ، فان هذين الرجلين لا نهاية وراءهما ولا حجابة بعدهما فيما عانياه من هذا الفن . غير أن وجدنا ما عانيا من ذلك قد لحقه التقصير عن بلوغ نهاية المدح في ثلاثة أوجه : أحدها أن دياسقوريدوس ذكر أكثر منافع الأدوية ومضارها ومناسبتها والمختار منها ، ولم يذكر طبائعها ولا كميتها وقوة كل واحد منها في أي درجة هو من حرارة أو برودة أو رطوبة أو يبوسة . فأما جالينوس فانه ذكر قوى أكثرها ولم يبالغ في ذكر منافعها ومضارها وخواصها المخصوصة بها (٠٠٠) والوجه الثاني : ان كثيراً من الأدوية التي ألقاها في كتبهما مجهول غير معروف في اللسان العربي وكثير منها معدوم غير موجود . والوجه الثالث : انهما تركا ذكر كثير من الأدوية المفردة التي لا غناء لأحد من الأطباء عن عملها ومعرفتها لعموم منفعاتها وكثرة الحاجة الى استعمالها ، فانما يوجد القول عليها مفرقاً في كتب كثيرة وأماكن مختلفة . فلما كان الأمر في هذا الفن من العلم على ما بينا حملنا على العناية بتأليف كتاب أذكر فيه الأدوية التي عليها اعتماد الأطباء في معالجة الأدوية » (٥٥) .

قسّم ابن الجزار كتابه الى اربع مقالات، ورتب الأدوية المفردة فيه حسب قواها ، فجعل أدوية الدرجة الأولى في المقالة الأولى وأدوية الدرجة الثانية في المقالة الثانية ، وأدوية الدرجة الثالثة في المقالة الثالثة وأدوية الدرجة الرابعة في المقالة الرابعة ، وهو ترتيب صعب يدل على مدى خبرة ابن الجزار بطبائع الأدوية وقواها . وجملة الأدوية التي تحدث عنها ٢٧٨ دواء تنتزل الأدوية النباتية بينها المنزلة الأولى ، اذ يبلغ عددها ٢١٩ دواء ، أما بقية الأدوية فمعظمها معدني (٥٦) .

وعند النظر في مواد هذا الكتاب النباتية نلاحظ بلوغ مرحلة الاهتمام الطبي بالنبات عند العرب درجة من النضج كبيرة ، ذلك ان معرفة العرب بالنباتات الطبية قد بلغت مع ابن الجزار درجة فائقة من الدقة والوضوح ، فهم قد خبروا قواها وطبائعها خبرة جيدة جعلت ابن الجزار يرتب مواد كتابه حسب تلك القوى والطبائع ، ثم انهم قد أجادوا معرفة منافع النباتات العلاجية وذلك ما جعل ابن الجزار يطيل الحديث في تلك المنافع ويتوسع فيه توسعاً ظاهراً (٥٧) الا أن تلك المعرفة الدقيقة بالخصائص الطبية لم تصبحها معرفة

تماثلها بتجنيس النبات وتصنيفه • فالخلط بين الحشيش والشجر مثلاً ما زال قائماً وكل نبت يمكن أن يسمى شجراً وحشيشاً في نفس الوقت ، ونورد من هذا الخلط عند ابن الجزار مثالين : أولهما قوله عن « الاسطوخودوس » أنه حشيشة ذات ورق وقضبان تعلو عن الأرض ذراعين وأكثر وأقل، وهي شجرة تشبه شجرة « الاكليل » (٥٨) ، وقوله عن « الشيلم » وشجرته حشيشة تعلو على الأرض الذراع وأكثر وأقل (٥٩) ثم إن التصنيف النباتي قد بقي عندهم على ما كان عليه عند ديوسقوريدس من قبلهم فلم ينتبهوا - مثله - الى تصنيف النباتات حسب فصائلها (Familles) بل بقيت عندهم مصنفة حسب أنواعها (Especies) وضروبها (Varietes) على أنهم قد تمثلوا في الحقيقة هذا النوع الأخير من التصنيف تمثلاً واضحاً وان لم يخل عندهم من التشويش والاضطراب • وأنواع التصنيف حسب الضروب التي يقدمها لنا ابن الجزار في كتاب « الاعتماد » تبلغ التسعة: وهي التصنيف حسب اللون ، كأن يكون من النبات أحمر وأبيض (٦٠) ، وحسب لون النوار ، كأن يكون من النبات أصفر النوار وبنفسيه وأبيضه (٦١) وحسب هيئة النبات ، كأن يكون من النبات طويل ومدور (٦٢) ، وحسب هيئة الورق أو الحب أو الأغصان ، كأن يكون من النبات كبير الحب، وصغيره (٦٣)، أو كبير الورق صغير الأغصان ، وكبير الورق والأغصان (٦٤) وحسب حجم النبات كأن يكون منه كبير وصغير (٦٥) ، وحسب المنبت ، كأن يكون من النبات بري وبستاني (٦٦) أو بري وبستاني وجبلي (٦٧) أو بستاني وجبلي ومائي (٦٨) ، وحسب زمن ظهور النبات ، كأن يكون منه صيفي وشتوي (٦٩) ، وحسب المنطقة الجغرافية التي يكثر النبات فيها ومنها يستجلب ، كأن يكون منه عدني وحشي (٧٠) وحسب « جنس » النبات ، حسب التذكير والتأنيث ، فيكون منه الذكر والأنثى (٧١) •

لقد أخذ ابن الجزار هذه الأنواع من التصنيف عن ديوسقوريدس ثم عن اسحاق بن عمران • ولكنه لم يحفل في الغالب بالبحث عن ضروب أخرى من النباتات التي تحدث عنها ، بل انه على عكس ذلك كان في أحيان كثيرة يلجأ الى حذف ضروب نباتية ذكرت قبله معتبراً الحديث عنها غير مجد ، اما لأنها مجهولة عند العرب ، أو لأنه هو ذاته يجهلها • ومن أهم الأمثلة على هذا المنحى عند ابن الجزار نبات « اليتوع » الذي ذكر له ديوسقوريدس سبعة ضروب (٧٢) وفصل الحديث عنها • ولم يذكر له ابن الجزار الا الضربين الأول والثاني فقط عند ديوسقوريدس ، أي الذكر والأنثى (٧٣) • ولا شك أن سبب هذا الاهتمام الضئيل بالنبات في حد ذاته عند ابن الجزار هو كونه طبيباً وصيدلياً تهمة من النبات منافعه العملية العلاجية ، وليس عالم نبات يستهويه البحث في خصائص النبات العلمية المحض •

ولم يشذ عن ابن الجزار في الحقيقة الأطباء والصيادلة اللاحقون له طيلة القرنين الرابع والخامس الهجريين ، في اتباع هذا المنحى • على أننا نريد أن لا نغفط هؤلاء حقهم في تحقيق بعض التقدم في دراسة النباتات الطبية • الا أن ذلك التقدم لم يتجاوز في نظرنا اكتشاف بعض النباتات الجديدة - وخاصة في البيئة الأندلسية - التي أضيفت الى الرصيد القديم • أما البحث فيها فلم يخرج عن نطاق الاهتمام بالمنافع الطبية •

وقد ظل هذا المنحى سائداً حتى النصف الأول من القرن السادس الذي شهد ظهور كتاب جليل بحق في تاريخ « النباتات الطبية » عند العرب، ونعني به كتاب « الأدوية المفردة » لأبي جعفر أحمد بن محمد الغافقي (ت : ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م) .

ان المطلع على القسم المتبقي من هذا الكتاب (٧٤) يتبين لمؤلفه ميزة لا نعرف أن أحداً من الأطباء والصيادلة العرب السابقين له قد توفرت له وهي كونه نباتياً وعشاباً ، إضافة الى كونه طبيباً وصيدلانياً . وقد نتج عن تلك الميزة عنده تفوق ظاهر على سابقيه من العلماء ، وخاصة في معرفة المادة النباتية القديمة ، والبحث عن النباتات الجديدة والكشف عنها ، والاهتمام في دراسة النباتات بالخصائص العلمية المحض أكثر من الاهتمام بالمنافع العلاجية . ويبرز الجانب الأول عند نقده الشديد للأطباء والصيادلة السابقين له ، لعدم تحريره ولتقليد بعضهم البعض (٧٥) ثم المامه الدقيق بالمادة النباتية في كتاب « المقالات الخمس » لديوسقوريدس ، وقد مكنه ذلك من ادراج معظمها في كتابه والكشف عن الكثير من أسماء النباتات التي بقيت مجهولة في ترجمة الكتاب العربية (٧٦) . ويظهر الجانب الثاني عنده في اضافته نباتات جديدة أو ضروباً جديدة من نباتات كانت معروفة من قبل ، وقد وقف على ذلك جميعاً في بلاد الأندلس (٧٧) . والنباتات التي أضافها في أبواب الكتاب السبعة الأولى (١ - ز) أحد عشر نباتاً ، هي « الامليس » (٧٨) « أذن الأرنب » (٧٩) و « الأطر مالة » (٨٠) و « الانجبار » (٨١) و « اليريشانة » (٨٢) و « البلختة » (٨٣) و « البشنة » (٨٤) و « البدد » (٨٥) و « البرييلة » (٨٦) و « الهذيلية » (٨٧) و « الوطم » (٨٨) .

وأما الضروب الجديدة التي أضافها في تلك المواد نفسها من كتابه فسبعة ، ثلاثة منها للأسارون (٨٩) واثنان للأصوخ (٩٠) واثنان للأشنان (٩١) . ويدل على المظهر الثالث عنده احتفاله الكبير بوصف النباتات - التي أضافها خاصة - وصفاً دقيقاً مركزاً على الملاحظة العلمية المحض وإهماله الظاهر منافع النبات العلاجية التي لا يشير إليها إلا لما في بعض الأحيان (٩٢) أو يهملها إهمالاً كلياً في أحيان أخرى (٩٣) . إلا أن الغافقي - رغم أهمية مساهمته في التقدم بالبحث النباتي عند العرب - لم يكن بمنجاة من الخطأ (٩٤) ولم يبلغ مستوى عالم آخر لاحق له ، هو أبو محمد عبدالله بن أحمد ابن البيطار .

لقد شغل الطب والنبات ابن البيطار (ت : ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) لكن النبات كان عليه أغلب حتى نسب اليه فسمي « النباتي » (٩٥) و « العشاب » (٩٦) . وابن البيطار يستحق في الحقيقة هاتين الصفتين عن جدارة لأنها لا نعرف عالماً آخر - عدا أستاذه أبي العباس النباتي - قد خص النبات بمثل ما خصه هو به من العناية والبحث فطلبه في مظانه وارتحل من أجله لاحكام معرفته به .

وقد ابتدأ اهتمام ابن البيطار بالنبات منذ شبابه الأول فعشب في بلاد الأندلس وتعرف على محيطها الطبيعى النباتي وخاصة صحبة أستاذه أبي العباس أحمد بن محمد النباتي ، ثم غادر الأندلس في رحلة علمية نباتية طويلة لم يعد بعدها الى الأندلس كان يقيم أثناءها في كل بلد يحل به وينصرف الى دراسة نباتاته وأعشابه والبلدان التي مرَّ بها وأقام فيها هي - تباعاً - المغرب الأقصى والمغرب الأوسط (الجزائر) وأفريقية (تونس) وطرابلس الغرب

(ليبيا) ثم بلاد اليونان التي أخذ إليها طريق البحر من برقة، ثم تركيا فبلاد فارس والعراق وبلاد الشام والجزيرة العربية ومصر حيث انتهت به الترحال وعين رئيساً على سائر العشايين والصيدالة . ولم يتوقف في هذه المدة عن التعشيب ، فقد كان ينتقل بين القاهرة ودمشق للفرض نفسه ولأغراض أخرى ، وكان له تلاميذ يصطحبونه في التعشيب منهم ابن أبي أصيبعة الذي قال انه شاهد « معه في ظاهردمشق كثيراً من النبات في مواضعه » (٩٧) . وقد جعل هذا الاهتمام البالغ بالنبات وهذا البحث الدؤوب عنه من ابن البيطار « أوحده زمانه وعلامة وقته في معرفة النبات وتحقيقه واختياره ومواضع نباته ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها » كما يقول ابن أبي أصيبعة (٩٨) ، بل لعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان ابن البيطار كان شيخ علماء النبات عند العرب القدامى وأعلمهم على الإطلاق بالنباتات وأحوالها ، رغم أن اهتمامه بها في كتاباته كان موظفاً لغايات صيدلية وطبية وليس للبحث في النبات في حد ذاته .

ويتبين صحة ما ذكرنا كل من اطلع على أربعة من كتب ابن البيطار ، هي « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » - وهو أهمها - و « المغني في الأدوية المفردة » - وقد اطلعنا على الجزء الثاني منه فقط - و « تفسير كتاب ديسقوريدوس » وكتاب « الأباثة والأعلام بما في منهاج من الخل والأوهام » . والمطلع على هذه الكتب الأربعة يخرج بثلاثة استنتاجات أساسية تبين أهمية اسهام ابن البيطار في تطويع المباحث العربية في علم النبات .

أولها : اطلاعه الواسع المعمق على ما كتبه سابقوه ومعاصروه - من أعاجم وعرب - في النبات ، وهو لم يطلع على ما كتبه أصحاب صناعته فقط من أطباء وصيدالة وعلماء طبيعة ، بل على ما كتبه علماء اللغة أيضاً ، وقد بلغ عدد العلماء الذين اعتمدتهم في كتب « الجامع » مثلاً حوالي مائة وخمسين عالماً من أسم مختلفة . وقد غربل ما كتبه أولئك العلماء ونخله وسجل منه في كتابه ما صح عنده - كما يقول - بالمشاهدة والنظر « وثبت عنده بالخبرة لا بالخبر » (٩٩) . ويسترعي الانتباه عند النظر في هذه الظاهرة هو اتقان ابن البيطار الدراية بالنباتات التي ذكرها ديسقوريدوس في مقالاته الخمس ويظهر تلك الدراية عنده أمران : هما استيعابه المادة النباتية الواردة في مقالات ديسقوريدوس استيعاباً كلياً في كتابه « الجامع » وافراده كتاباً مستقلاً لتفسيرها وكشف قناع العجمة عنها . ويمكن لنا القول - انطلاقاً مما ذكرنا - أن معارف العرف والعجم في النبات - وخاصة في النباتات الطبية - قد بلغت عند ابن البيطار في القرن السابع الهجري حداً أقصى من « الهضم » والتمثل العلميين .

وثانيها : وهو متصل بالأول - وهو معرفته الفائقة بدقائق أعيان النبات وأحواله وخصائصه وأهم ما يعبر عن ذلك عنده نقده العلمي المنهجي الدقيق لأخطاء العلماء العرب الذين أخذ عنهم والتراجمة الذين نقلوا كتب الطب الأعجمية إلى العربية . ومن العلماء الذين انتقدهم وأصلح أخطاءهم حنين بن اسحاق (١٠٠) واصططن بن بسيل (١٠١) واسحاق ابن عمران (١٠٢) ، والرازي (١٠٣) واسحاق بن سليمان الاسرائيلي (١٠٤) وأحمد بن الجزار (١٠٥) وابن جليل (١٠٦) وابن سمجون (١٠٧) وابن سينا (١٠٨) وابن وافد (١٠٩) والشريف

الادريسي (١١٠) والغافقي (١١١) . والعالم الذي نال منه النصيب الأوفر من النقد هو ابن جزالة ، فقد انتقده في مواضع عديدة من كتاب « الجامع » (١١٢) وخصه بكتاب مستقل هو « الابانة والاعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام » (١١٣) . والانتقادات التي وجهها ابن البيطار للعلماء السابقين له مهمة جداً لأنها دالة على مدى قدرته على التمييز الصحيح بين أصناف النبات وأنواعه وفصائله. ونكتفي بالإشارة من ذلك إلى ثلاثة أمثلة مما خلط فيه السابقون وأزال هو اللبس عنه ، أولها : تمييزه بين الأذخر والأسفل وقد خلط بينهما الرازي وابن سينا وابن جزالة (١١٤) ، وثانيها : تمييزه بين أصناف « الوطوس » الثلاثة وهي الحندقوقي البري والحندقوقي البستاني والبشني ، وقد خلط بينهما حنين ابن اسحاق ثم تواصل الخلط بعده حتى عصر ابن البيطار (١١٥) ، وثالثها : تمييزه بين الطباق والغافث ، وقد خلط بينهما أطباء المشرق والمغرب على السواء حتى عصر ابن البيطار أيضاً (١١٦) . وابن البيطار يلح على ضرورة التمييز بين أنواع النبات وأصنافه حتى لا يعطى نبات خصائص نبات آخر ، ولا يقع الطبيب في الزلل ويوقع من يأتي بعده فيه ، وهو زلل لا يفتقر في نظر ابن البيطار (١١٧) والاستنتاج الثالث - وهو الأهم - هو إضافة ابن البيطار نباتات جديدة من محض اكتشافه إلى النباتات التي عرفها العرب من قبل سواء عن طريق الترجمات أو نتيجة التجارب الخاصة. أضافاته صنفان : أولهما - تمثله النباتات الجديدة جدّة كلية باعتبارها نباتات مستقلة، وثانيهما - تمثله أصناف جديدة لنباتات قد عرفت قبله . أما النباتات الجديدة التي أضافها فعددها عشرة ، هي أطريلال (١١٨) وأرجان (١١٩) وصفيراء وعاقرقرحا الحقيقية وكتسون وكتيله ومستعجلة . وأما الأصناف النباتية الجديدة التي أضافها فتبلغ سبعة عشر صنفاً: صنفان للآقحوان وصنف للآنتله هو الآنتله البيضاء وصنفان للبشني وصنف للبلوط هو البهش (١٢٠) وصنف - غير شائك - للحرشف هو الخريع وصنف للزقوم وصنف لشجرة مريم هو العيهر وصنف للقستوس هو الشقواس وصنف للغافث العراقي وصنف للقنب هو القنب الهندي وصنفان للمخلصة وصنفان للمشكطرامشير وصنف اللبيش هو الطوارة . والجدير بالملاحظة عند النظر في هذه النباتات أو الأصناف النباتية الجديدة جميعها هو غلبه الحلية النباتية المحض على المنافع الطبيعية العلاجية . فالهم الأول عنده هو التعريف بالنبات تعريفاً علمياً يرافقه في الغالب وصف معظم أجزاء النبات وخصائصه المخصوصة به من أصل وجمة وساق وعيدان وقضبان وأوراق وزهر وثمر وحجم وامتداد واللون وطعم وزمن وموضع . إلا أن هذا التعريف عنده غير خاضع في الحقيقة لمنهج دقيق مضبوط لأنه قد يصف النبات من الأعلى إلى الأسفل أو من الأسفل إلى الأعلى ، كما أنه قد يبتدئ بوصف أجزاء النبات لينتهي بوصف خواصه أو يبدأ بوصف الخواص ليتدرج في وصف الأجزاء ، وقد يمزج في أحيان أخرى بين الأجزاء والخواص فتترد متداخلة . وابن البيطار لم يشد في هذا المنحى في الحقيقة - عن الأطباء والصيادلة الذين عنوا قبله بالنباتات الطبية ، فهو مثلهم لم يخلص العناية بالنبات لذاته بل لغرض أعم هو الطب والصيدلة فنظر مثلهم إلى النبات

باعتبارها أدوية وأغذية، ولكن الذي ميزه عنهم هو أنه لم يكتف بالنقل والاقتباس كما فعل معظمهم بل بحث عن النباتات الطبية في مظانها فوقف على أعيانها وأشخاصها في مواضعها فشخصها وتحقق من ماهياتها فكانت خبرته لذلك بالنبات أكبر وكان علمه به أغزر وأوفى .

٤ - مرحلة الملاحظة العلمية المحض :

قد رأينا أن الاهتمام بالنبات في المراحل السابقة كان موظفاً لأغراض ثانوية غير النبات في حد ذاته . فلم تتكون لذلك مدرسة يمكن تسميتها بمدرسة علم النبات العربية . فلم يتح لتلك المدرسة أن تنشأ إلا في النصف الأول من القرن السابع الهجري في الأندلس على يدي عالم قد لكنه لا يزال مغموراً خامل الذكر هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الاشبيلي (٥٦١ هـ / ١١٦٥ م - ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) الذي اشتهر باسم أبي العباس النباتي في كل المراجع التي تحدثت عنه لغلبة الاهتمام بالنبات عليه . ومن طرائف هذا العالم أن اجتمع عنده علمان تميز فيهما قل أن اجتماعاً عند غيره من قبل : هما علم الحديث - حتى سمي بأبي العباس الحافظ وأبي العباس المحدث - وعلم النبات . وقد كان في الفقه ظاهرياً متمصباً لمذهب أبي محمد علي بن حزم . ويبدو أن هذا الميل إلى الأخذ بالمظاهر في الفقه قد غلب عليه في مباحثه النباتية ، فتخلص من طريقة الرواية والاسناد - وقد أجادها في علم الحديث - والاعتماد على أقوال السابقين ليخلص إلى البحث الميداني المحض ، بحثاً عن النباتات الجديدة التي لم يقع عليها سابقوه ورغبة في الكشف عن حقائق النباتات التي اشتبه أمرها على سابقيه فتناقلها بعضهم عن بعض دون تحليل أو وصف علمي دقيق . وقد حصلت له من ذلك البحث نتائج على غاية من الأهمية لم يسبقه أحد إليها وهو ما جعل أحد مترجميه يقول عنه : « ولم يزل باحثاً عن حقائقه - أي النبات - كاشفاً عن غوامضه حتى وقف منه على ما لم يقف عليه غيره ممن تقدم في الأمة الإسلامية ، فصار أوحد عصره في ذلك فرداً لا يجاربه أحد فيه باجماع من أهل ذلك الشأن » (١٢١) .

أخذ أبو العباس علم النبات « عن أبيه وعن جده وكانا قدوة في العلم به » ، ثم طاف بلاد الأندلس - شرقاً وغرباً - للتمشيب . ثم أخذ طريق المشرق سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م بنية الحج ورواية الحديث ودراسة النبات . وقد كان مسلكه في هذه الرحلة بطيئاً لأنه كان ينصرف في كل بلد يحل به إلى ملاقات العلماء - علماء الحديث خاصة - ودراسة النبات .

ومشاهداته النباتية التي وصلتنا تثبت أنه قد أقام بالمغرب الأقصى والمغرب الأوسط وإفريقية وطرابلس الغرب وبرقة ومصر - حيث استبقاه ملكها الأيوبي ولكنه رفض - والحجاز - حيث أدى فريضة الحج سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م - والعراق وبلاد الشام التي عرج منها على صقلية ثم عاد إلى الأندلس سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م وبعد عودته جمع مختلف مشاهداته النباتية أثناء رحلته في كتاب سماه « الرحلة المشرقية » يبدو أنه رتب مادته على

حروف المعجم • والمؤسف حقاً أن هذا الكتاب قد ضاع ولم يبق لنا منه الا مائة وثلاثة مواد في كتاب ابن البيطار - تلميذ أبي العباس - «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» والحقيقة أن سبعة وتسعين مادة فقط من تلك المواد نباتية، أما المواد الست الباقية فهي غير النبات

وعند النظر في هذه المواد النباتية المتبقية من الكتاب نلاحظ انها جميعها في الحقيقة جديدة ومظاهر الجدة فيها أربعة :

أولها طريقة التناول بالبحث والدرس • ذلك أن أبا العباس هو أول من اعتنى اعتناء حقيقياً بالوصف الظاهري والتحليلية العلمية الدقيقة للنباتات المدروسة وهو يمعن في وصف أجزاء النبات المتحدث عنه وذكر خصائصه المخصوصة به بامعان يدل على اهتمامه النباتي المحض فهو - عند الحديث عن الثبت الواحد - غالباً ما يحيط بوصف الأصول والجمة والساق والعيدان والأغصان والقضبان والشوك والزغب والصمغ والرأس والورق والزهر والبزر وذكر الشكل والحجم والطول أو العرض والامتداد واللون والطعم وموضع الانبات وزمانه • وذلك الوصف الدقيق ليس له من هدف الا الاخبار عن ماهية النبات المتحدث عنه من حيث هو نبات فحسب، وليس غايته تعريف الناس بماهيته حتى يحسن اختياره ويصح استعماله في الطب • فابو العباس من هذه الناحية كان أول من أخضع دراسة النبات للملاحظة العلمية المحض المباشرة • على أنه في الحقيقة كثيراً ما يقع في هنة كانت غالبية عند سابقيه ، وهي الوصف بالتشبيه ، فيصف ورق نبات ما - مثلاً - أو زهرة أو ثمرة بتشبيهها - من حيث الخصائص خاصة - بزهر نبات آخر أو ورقة أو ثمرة • مثال ذلك قوله في وصف الثبت المسمى « اسرار » : « ... وهو على قدر ما صغر من شجر الرند، ورقه وزهره (كورقه) وزهره ويشمر ثمراً على قدر البندق كأنه ما صغر من ثمر الغوخ، أزغب الى الطول ما هو ، وفيه يسير بشاعة (...) » وهذه الشجرة صمغة لدنة فيها بعض شبه بالكندر يضاف الى هذا أن أبا العباس لم يخلص دائماً من ذكر منافع النبات في اشارات تتخلل أو تعقب الحديث عن صفات النباتات • الا أن تلك الاشارات عنده لا تتجاوز في أغلب الحالات الجملة الواحدة أو الجملتين وتلك المنافع عنده صنفان : قليلاً ما تكون طبية وغالباً ما تكون اجتماعية مثل استعمال النبات في الطعام أو الصباغة أو التزيين أو الغراء ... الخ الا أن هاتين الظاهرتين لا تقللان من قيمة السبق الذي كان له في الاهتمام بالنبات في حد ذاته باعتباره علماً مستقلاً غير موظف لغايات أخرى • وقد كان هذا الاهتمام عنده بالنبات المحض متعمداً اذ كان بإمكانه أن يوظف دراسة النبات لغايات طبية محض لأنه كان طبيباً مشهوراً أيضاً ، جيد العلاج • وقد كان المستشرق الفرنسي لوسيان لكرك (L. Leclerc) مترجم ابن البيطار الى الفرنسية - وقد تفضل الى السبق منذ أواخر القرن الماضي ، فقال عنه : « لقد كان أبو العباس بين العرب عالم النبات الأحق بهذا الاسم • فقد كان العلماء قبله يعتمدون عادة النقل والرواية ، وهو أول من صرف حياته الى دراسة النبات دراسة (ميدانية) مباشرة فتجاوز نظرة السابقين الى النباتات باعتبارها مجرد مفردات طبية • فابن جليل كان قد

كشفت عن نباتات جديدة لم يذكرها ديوسقوريدس ، ولكن اعتماده في ذلك كان على الكتب . والغافقي والشريف الأدريسي كانا قد أدخلتا في قائمة النباتات الطبية عدداً غير قليل من النباتات الجديدة . ولكن ههما لم يكن توسيع ميدان علم النبات المحض (٠٠٠) باختصار فان أبا العباس بين العرب لم يكن أول من عني فحسب بالملاحظة العلمية المحض في ميدان النبات ، بل كان أخصبهم اكتشافاً .

ومظهر الجدة الثاني عند أبي العباس النباتي هو تحليله لأول مرة نباتات قديمة كانت معروفة من قبل بأسمائها فقط أو كانت ماهياتها وخصائصها ماثراً اشتباه فقد كان أبو العباس إذا اطلع واسع على ما ألف قبله في النبات . وإذا كانت غايته نباتية محضاً فإنه لم يهتم بالنباتات المعروفة التي أصبحت لا تثير شبهة أو اشكالا ، ولم يثقل كتابه بالنقول عن سابقه مثل الذي يفعل المؤلفون في الأدوية المفردة ، بل سعى إلى الوقوف على أعيان النبات بنفسه للتحقق من ماهياتها لوضع مدونة في النبات يضيف فيها جديداً . وقد أتاحت له تلك المعاينة المباشرة التعرف على ماهيات نباتات كثيرة كانت من قبل منقوصة الحلية أو ماثراً الاشكال ، وقد بلغ عند هذه النباتات عنده خمسين نباتاً من جملة سبعة وتسعين . وهذه النباتات تنقسم إلى ثلاثة أصناف : الأول - وهو الأقل عدداً - تمثله نباتات مغربية - بربرية بالخصوص - قد اكتشفها قبل القرن السابع بعض المؤلفين في الأدوية المفردة فتحدثوا عن منافعها الطبية وأبقوا حليتها العلمية منقوصة ومن هذه النباتات مثلاً نباتا « أكثار » و « أرجينقنة » وقد كانا من اكتشاف الشريف الأدريسي (ب) : ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م) في القرن السادس . والصنف الثاني تمثله نباتات قديمة - وعندها حوالي العشرة - معظمها قد ذكر في الكتب اليونانية وبعضها قد ذكر من قبل في كتب الأدوية المفردة العربية ، ولكن الاهتمام بمنافعها قد جعل المؤلفين السابقين يقصرون في وصف ماهياتها .

وقلة عند هذا الصنف تعود بدون شك إلى كون أبي العباس كان قد أفرد لشرح مفردات ديوسقوريدس وجالينوس كتاباً مستقلاً سماه « شرح أدوية ديسقوريدوس وجالينوس » والتنبيه على أوهام مترجميها » ومن أمثلة هذا الصنف نذكر « سموط » و « عشرق » و « غبيراء » و « قضاب مصري » و « ماميثا » وهذا المثال الأخير من أحسن الأمثلة للتدليل على نزعة أبي العباس في التحقيق ورغبته في إضافة الجديد . فلقد كان الأطباء والصيادلة في معرفتهم للماميثا عالية على ديوسقوريدس ، فلم يصفوها في كتبهم اتكالاً على وصف هذا العالم اليوناني لها . ولكن الماميثا من النباتات التي تثير الانتباه لموافقتها في ماهيتها موافقة كبيرة نباتاً آخر هو الخشخاش الساحلي أي الخشخاش المعروف بالقرن ، وقد أدى هذا التوافق بين النباتين إلى الخلط بينهما . وقد ناقش أبو العباس هذه المسألة نقاشاً علمياً دقيقاً نورد منه هذه الفقرة :

الفرق الثابت الذي لا يشكل ولا يحتاج معه إلى فرق آخر - وقد خفي على من مضى من المحدثين ولم يعلمه كثير من المتأخرين - أن الخشخاش الساحلي فيه الحبة المنكئة وغير

المنكتة والماميثا المحققة النابتة في البرمستانفة الكون في كل سنة وتنحطم عند انتهاء الصيف .
والمزدرع من الخشخاش الساحلي بالبساتين المسمى ماميثا عند أهل اشبيلية فان الذي
ينبت منه على الأصل تنحطم أغصانه وتبقى ارومته ينبت منها في المقبل (٠٠٠) . واعلم
أن الخشخاش المقرن والماميثا لا فرق بينهما في صورة الورق والزهر والثمر ولون الأصل
من الصفرة التي فيها الا ما أنباتك به أولاً وآخراً من اختصاص الماميثا بالبراري والأرض
الطيبة واختصاص الخشخاش بالسواحل البحرية برمليها وبحجريها .

وكذا قد أعلمتك أن من الماميثا ما يكون في أسفل ورقه نكتة دكنة اللون ومنه ما لا
نكتة فيه وكذا من أنواع الخشخاش ما يشبهه الا أن زهر هذا أحمر وسنتفه قائمة فصار
فيها خشونة بخلاف سنفة الخشخاش المقرن والماميثا فان زهر ثمرها معوج كالقرون .

والصنف الثالث من هذه النباتات نباتات عربية - وعددها الأغلب - من جزيرة
العرب خاصة ، كان أبو حنيفة قد ذكرها في كتاب « النبات » لكنه لم يصفها ولم يحلها ،
وقد اتكل المؤلفون في الأدوية المفردة بعد عليه فاكتفوا في الغالب بالقليل الذي عنده .
وهذا الصنف في الحقيقة على قدر كبير من الأهمية لأن نباتاته في معظمها تنتمي الى أرض
الجزيرة العربية والى ساحل البحر الأحمر بالخصوص ولولا تعريف أبي العباس بتلك
النباتات تعريفاً علمياً دقيقاً لبقيت في المؤلفات العربية مجهولة مثل نباتات أخرى كثيرة لم
تصلنا الا في معاجم اللغة ومتونها . وقد جعل هذا المظهر المستشرق الفرنسي لوسيان لكرك
يشيد بقيمة كشف أبي العباس ويعتبرها سبقاً مهماً وتكملة أساسية لمباحث العالم
السويدي بطرس فورسكال - من القرن الثامن عشر - النباتية في أرض مصر والجزيرة (١٢٢) .
ومن أمثلة هذا الصنف نذكر « إيهقان » و « بكا » و « تنوم » و « تمتم » و « جشجات »
و « حديق » ٠٠٠ الخ .

ومظهر الجدة الثالث عند أبي العباس هو اضافته أصنافاً جديدة لنباتات قديمة
معروفة . وهذا المظهر يعتبر توسيعاً في ميدان علم النبات والمعارف السابقة فيه . وعدد
الأصناف الجديدة التي أضافها سبعة عشر ، هي الاشراس وهو صنف من الخنثى والاكراس
وهو الصنف الكبير غير المثمر من الطرنشولي والبابونق وهو الصنف الصغير من البابونج
والصنف الصقلي من البردي والرببل وهو صنف من البرنجاسف والصالبية وهو صنف
صغير من الناعمة - الالاسفاقن واليزفون وهو الصنف الذكر غير المثمر من الغبراء
والغبارية وهو صنف من مسبلس (Mespilus) اليوناني وسبعة أصناف من القرصعنه هي
الأبيض الزهر والأخضر والمستدير الورق والأزرق والأبيض والساحلي والمر واللوفا
وهو صنف من القوطولودون والمثنان اللبني - أو البرقي ، نسبة الى برقه - وهو صنف
من المثنان الثابت في مصر وبلاد الشام .

وأما مظهر الجدة الرابع عند أبي العباس فاضافته نباتات جديدة اكتشفها هو ولم
تكن معروفة قبله ، وعددها الجملي عشرون نباتاً من جملة سبعة وتسعين وهو عدد يعتبر
مهماً جداً بالقياس الى عدد المواد المتبقية بين أيدينا من كتاب « الرحلة المشرقية » . وتلك

النباتات العشرون موزعة على أماكن مختلفة من المواضع التي عشب فيها أبو العباس .
 اثنان منها أندلسيان هما « بطرة » وعديسة ، ونبات واحد رآه في المغرب الأقصى هو
 « القشروا » ، وخمسة نباتات رآها في إفريقية هي « أكر البحر » و « زقشته » و « قزاح » و
 « قللجه » و « قلنجونة » وأربعة رآها في الحجاز - وخاصة على ساحل البحر الأحمر
 هي « اسرار » و « شوره » و « عكرش » - وهو غير الذي ذكره أبو حنيفة - و « علقم »
 وهو أيضاً غير النبات المعروف بهذا الاسم من قبل ، وخمسة مشتركة قد شاهدها في أكثر
 من موضع ، هي « بلان » وقد رآه في برقة وبيت المقدس و « ذنب الخروف » - وهو
 نبات غير المعروف من قبل بهذا الاسم - ، وقد رآه في إفريقية وبلاد الشام و « ششته » وقد
 رآه في الأندلس وبلاد المغرب و « شطبية » وقد شاهد نباته في الأندلس وإفريقية
 و « ليفيه » وقد وقف عليه في مصر والحجاز . أما النباتات الثلاثة الباقية فإنه لم يصرح
 بموضع معين شاهدها فيه ، وهي « شبرم آخر » و « صنين » و « غلقى » والمظنون عندنا أنه
 شاهد الشبرم والغلقى في الحجاز ففي حديثه عنها ما يوحي بذلك .

تلك أهم المظاهر الجديدة في تجربة هذا العالم الطبيعي النباتية . ولو وصلنا كتابه
 « الرحلة المشرقية » كاملاً لممكننا بدون شك تبين مظاهر جديدة أخرى فيه إلا أن هذه
 المظاهر الجديدة الأربعة كافية في نظرنا لتتزل أبا العباس المنزلة الأولى بين العلماء الطبيعيين
 العرب الذين اهتموا بالنبات وتجعلنا نعتبره صاحب مذهب ومدرسة في تاريخ علم النبات
 عند العرب . إلا أن المذهب الذي ذهبه أبو العباس والمنهج الذي سلكه في دراسة النبات
 قد توقفا بعده ولم يكن لهما حظ من الوجود ، إلا ما رأيناه عند تلميذه ابن البيطار وقد كان
 له معاصراً ، إلا أن عمل ابن البيطار كان نباتياً محضاً ولقد غلب بعد النصف الأول من
 القرن السابع مذهب التلميذ على مذهب الأستاذ فأقبل العلماء على كتاب ابن البيطار
 - « الجامع » - يلخصونه ويختصرونه وينتجون منه لغايات طبية علاجية ، ونسي
 كتاب « الرحلة » لأبي العباس وأهمل المنهج الجديد الذي أدخل لأول مرة في المباحث النباتية
 العربية .

خاتمة

تلك هي المراحل الأساسية التي مر بها علم النبات عند العرب . فقد بدأ الاهتمام
 بالنبات عند العرب في إطار لغوي محض ثم في إطار التماس بين اللغات والثقافات عن
 طريق الترجمة ثم في إطار الاهتمامات الطبية العلاجية وقد تخلل ذلك كله اهتمام من نوع
 آخر في إطار المباحث الفلاحية ، لكن هذا الاهتمام أيضاً لم يكن بعلم النبات المحض بل
 لفرض آخر غيره . ولم تخلص العناية بالنبات المحض إلا في النصف الأول من القرن السابع
 الهجري في محاولة فريدة وتجربة فذة من المؤسف أن لم يكن لها تواصل ، وبعد هذا العرض
 الذي قدمنا لمختلف تلك المراحل ليس لنا إلا أن نؤكد ما كنا ذكرناه في مقدمة هذا البحث :
 فالتجربة العربية في علم النبات تجربة رائدة ليس لها سابق أو مثل في تاريخ علم النبات ،
 وهي تجربة متميزة في التراث العلمي الإنساني سواء من حيث عدد العلماء الذين اهتموا

باليات أو من حيث المذهب الذي ذهبوه في دراسته والمنهج الذي سلكوه في مباحثه . فالأهم السابقة تشاركهم في الاهتمام به لأغراض طبية وفلاحية ولكنهم يمتازون على غيرهم باخلاصهم العناية به لذاته اذ جعلوا منه علماً مستقلاً .

ولكن أين نحن اليوم من التجربة النباتية العربية القديمة ومن التجربة العالمية ؟

أول ما تجدر ملاحظته هو أنه لا يوجد عالم عربي واحد اليوم يمكن أن ينعت بالنباتي كأبي العباس الاشبيلي أو تلميذه ابن البيطار في القرن السابع الهجري . وأبرز الدلائل على ذلك ان معظم الدراسات الأساسية التي وضعت في وصف المحيط النباتي العربي - مشرقية ومغربية - كانت من عمل أعاجم ، وبلغات غير العربية وأولئك الأعاجم هم الذين اكتشفوا النباتات والأصناف النباتية الجديدة التي لم يعرفها العلماء العرب والعلماء السابقون لهم من قبل . ثم ان التراث العلمي النباتي العربي القديم يكاد يكون اليوم في جملته مجهولاً ، اذ لا يعرف الناس منه الا النزر القليل مما وصلنا في « جامع » ابن البيطار خاصة . وأسباب ذلك الجهل كثيرة نكتفي منها بأربعة :

أولها : بقاء ذلك التراث الى يومنا هذا مخطوطاً مهملاً لا ينتفع به ، ولو اهتم به ونشر للناس لثم استقرأوه استقراء علمياً ومنهجياً والاستفادة منه في مباحثنا النباتية العربية الحديثة .

ثانيها : غياب المعجم التاريخي الموسوعي العربي الذي يدون من اللغة العربية في كل العصور وكل الأمصار العربية وفي كل مستويات اللغة .

ثالثها : حائق اللغة ، ذلك ان معظم نباتيينا انما هم مهندسون درسوا علم النبات بلغات أجنبية في جامعات أجنبية والقطيعة بينهم وبين التراث النباتي العربي كبيرة .

رابعها : اهتمامنا - الى حد الآن - في الجامعات العلمية والجامعات خاصة بالنقل والترجمة من اللغات الأخرى ، حتى انك تكاد لا تجد اليوم كتاباً عربياً واحداً في وصف النباتات العربية وغير العربية ، ولو على مثال كتاب « الرحلة المشرقية » لأبي العباس النباتي . وجل ما نجده معاجم مزدوجة اللغة أو متعددة اللغات منزلة العربية فيها ثانوية . ثم هي في الغالب معاجم اصطلاحية لغوية وليسست نباتية علمية تعنى بوصف ماهيات النبات وتحليلته وتصنيفه ، يضاف الى ذلك كونها موسوعات في علم الطبيعة ليست خالصة في النبات ، الا النادر منها . وأهم تلك الأعمال « معجم العلوم الطبية والطبيعية » للدكتور محمد شرف (طبع سنة ١٩٢٦) وهو انكليزي عربي « ومعجم أسماء النبات » للدكتور أحمد عيسى (طبع سنة ١٩٣٠) وهولائيني فرنسي انكليزي عربي ، ومؤلفا هذين المعجمين طبيبان وثاني المعجمين في النبات المحض لكنه في المفردات النباتية ، وقد قام فيه مؤلفه بجهود كبير في استقراء ما توصل اليه - وهو قليل - من كتب التراث النباتي العربي ، ثم « معجم الألفاظ الزراعية » للأمير مصطفى

الشهابي (طبع سنة ١٩٤٣) وهو فرنسي عربي في النباتات الزراعية والحيوان خاصة و « الموسوعة في علوم الطبيعة » لادوار غالب (طبع سنة ١٩٦٥ في ثلاثة أجزاء) ، وهو معجم عربي لاتيني فرنسي انكليزي ٠٠٠٠ في مصطلحات مواليد الطبيعة الثلاثة : النبات والحيوان والمعادن ، فهو اذن في غير النبات المحض . الا أنه يمتاز على المعاجم السابقة بخصلتين : ترتيب موادّه على حروف الهجاء العربية ، وتعريف المواد فيه تعريفاً موجزاً علمياً دقيقاً بماهية المولود المتحدث عنه وخصائصه . وآخر هذا الصنف من المعاجم « معجم مصطلحات النبات » (طبع سنة ١٩٧٨) وهو الجزء الخامس من « المعجم الموحد للمصطلحات العلمية في مراحل التعليم العام » ، من وضع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وهذا المعجم انكليزي فرنسي عربي ، صغير الحجم ، لغوي اصطلاحي أساساً . وميزته هي كونه في النبات المحض . الا أن فيه عيباً كبيراً ظاهراً لكل عين ، هو احتكام واضعيه الى الاجتهاد الشخصي في ترجمة المصطلحات الانكليزية والفرنسية واهمالهم اهمالا يكاد يكون كلياً أعمال سابقيهم من محمد شرف حتى ادوار غالب . أما العلماء العرب القدامى فكان بينهم وبين واضعي هذا الكتاب جدار سميك (١٢٣) .

وخلاصة القول : ان المرحلة التي يمر بها علم النبات عند العرب في العصر الحديث تشبه الى حد كبير المرحلة الثانية التي تحدثنا عنها في هذا البحث ، أي مرحلة النقل والترجمة . ولسنا ندري الى متى ستتواصل هذه المرحلة . وهي على كل حال متواصلة باقية ما دام علم النبات في البلاد العربية يدرس بلغات أعجمية ، وما دامت اللغة العربية في المؤلفات التي توضع في النبات ذات منزلة ثانوية ، وما دام نباتيون لا يعرفون التراث العلمي النباتي العربي معرفة حقيقية جيدة ، ولا يعرفون طريق الرحلة داخل البلاد العربية وخارجها بحثاً عن النباتات في مظانها لمعرفة المتعارف منها معرفة أدق تفوق ما يصلهم عن طريق الترجمة واكتشاف الجديد الذي لم يكتشف بعد ، حتى يحيوا سنة اندثرت ، ومذهباً في العلم كان العلماء العرب القدامى السابقين اليه .

★ ★ ★

□ العواشي :

- ١ - لقد اهتم العرب بالنبات ضمن اهتمامهم بعلم الفلاحة ايضاً . وقد اهتمنا الحديث عمداً عن هذا الجانب متوقعين ان يتناوله غيرنا بالبحث في هذه الندوة ضمن البحث في علم الفلاحة عند العرب .
- ٢ - انظر حول الرسائل المؤلفة في هذه الفترة : Sezgin : GAS, 3/330-338 .
- ٣ - نشرها هفتر بعنوان « كتاب النبات والشجر لأبي سعيد الاصمعي » (ط ٢ بيروت ١٩٠٨ ، في ٤٨ ص) وأعاد نشرها عبدالله يوسف الغنيم وعلى هذه النشرة الثانية اعتمادنا في هذا البحث . والملاحظ أن نسبة هذه الرسالة الى الاصمعي قد أثارت جدلاً : انظر حسين نصار : دراسات لغوية ص ٦٩ - ٧٠ .
- ٤ - الاصمعي : كتاب النبات ، ص ص ٣ - ١٣ .
- ٥ - نفس المصدر : ص ص ١٣ - ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ و ٢٧ - ٢٢ .

٦ - نفس المصدر ، ص ص ١٩ - ٢٤ و ٣٦ - ٣٧ .

٧ - قد نشره برنارلويين (B. Leewin) وفيه مواد الحروف (١ - ز) وسيكون على هذا الجزء اعتمادنا الأكبر في هذا البحث ، وعدد المواد فيه ٤٨٢ مادة .

٨ - اضاف مواد الحروف (س - ي) ، وسنعمد هذا الجزء اعتمادا قليلا .

٩ - يذكر ابن النديم في الفهرست (ص ٤٤) انه قدم بغداد ايام المهدي (١٥٤ هـ / ٧٧١ م - ١٦٩ هـ - ٧٨٥ م) واقام بها أربعين سنة وقد كان شاعرا ولف في اللغة الا انه لم ينسب اليه كتابا في النبات .

١٠ - المادة الاولى وحدها - اراك - فيها ثلاثون شاهدا : كتاب النبات ، ٢/١ - ١٠ .

١١ - من المواد التي ذكر فيها شواهد قرآنية : « أب » ، ٢٨/١ ، و « جنا » ٩٢/١ « وحصاد » ١١٤/١ ، وحطام ١٤/١ و « خضر » ١٥٠/١ ، ومن المواد التي ذكر فيها شواهد من الحديث « شبرم » ٦١/٢ و « غبراء » ١٦٧/٢ و « غرقند » ١٧١/٢ .

١٢ - أبو حنيفة : كتاب النبات ، مادة « اثل » ١٧/١ . وقد استغرق هذا الاستطراد أربع صفحات : ١٧ - ٢٠ .

١٣ - انظر الثبت المفصل لمؤلفات أبي حنيفة في مقدمة حميد الله الفرنسية للقسم الثاني من كتاب النبات ، ص ص ٥٣-٥٦ .

١٤ - انظر في القسم الاول من الكتاب المواد ٩٣ ص ٦٢ ، ١٠٧ ص ٦٤ ، ١٠٩ ص ٦٥ الخ .

١٥ - نفس المصدر ، المادة ١٠٥ ، ص ٦٤ .

١٦ - نفس المصدر ، المادة ١٠٥ ص ٦٣ .

١٧ - نفس المصدر ، المواد ١ ، ص ٤ ، ٤٢ ص ٤٠ ، ٤٤ ص ٤٠ .

١٨ - نفس المصدر ، المواد ٤٥ ص ٤٠ ، ٩٩ ص ٦٣ ، ١٠٦ - ١٠٧ ص ٦٤ .

١٩ - نفس المصدر المادتان ٧٠ ص ٤٥ و ٨٧ ص ٥٤ .

٢٠ - نفس المصدر ، المواد ٣٤ ص ٢٨ ، ٣٥ ص ٢٨ ، ٣٦ ص ٣٩ ، ٣٧ ص ٣٩ الخ .

٢١ - نفس المصدر ، المادة ٦٧ ص ٤٥ .

٢٢ - نفس المصدر ، المادة ٤١ ص ٣٩ .

٢٣ - نفس المصدر المواد ٣٩ - ٤٠ ص ٣٩ ، ٩١ ص ٦٠ ، ٩٤ ص ٦٢ الخ .

٢٤ - نفس المصدر ، المادة ٧٤ ص ٤٧ .

٢٥ - نفس المصدر ، المواد ٣٨ ص ٣٩ ، ١١٨ ص ٦٨ ، ١٢٨ ص ٧٢ الخ .

٢٦ - نفس المصدر ، المواد ٩ ص ٢٥ ، ٩٣ ص ٤٠ ، ٨٠ ص ٥٢ الخ .

٢٧ - نفس المصدر ، تمهيد المحقق ، ص ٦ .

٢٨ - نفس المصدر ، المادة ٢٢١ ، ص ١٠٢ .

٢٩ - نفس المصدر ، المادة ٤٤٦ ، ص ١٩٨ .

٣٠ - قد أحال اليه في المواد ١ ص ٣ ، ٧٢ ص ٤٦ ، ١٤١ ص ٥٧ الخ .



- ٣١- نفس المصدر ، المادة ٨ ص ٢٣ .
- ٣٢- نفس المصدر ، المادتان ١ ص ٦ ، ١١٧ ص ٦٧ ٠٠٠ الخ .
- ٣٣- راجع التعليق ٢٦ .
- ٣٤- أبو حنيفة : كتاب النبات ، ٣٦/١ (المادة ٢٧) .
- ٣٥- نفس المصدر ، المادة ٣٨ ص ٣٩ .
- ٣٦- نفس المصدر ، المادة ٥٩ ص ٤٣ .
- ٣٧- نفس المصدر ، المادة ٦١ ص ٤٤ .
- ٣٨- نفس المصدر ، المادة ١٤٩ ص ٨٢ .
- ٣٩- نفس المصدر ، المادة ٢٢٧ ص ١٠٦ .
- ٤٠- انظر كتاب « الجامع » لابن البيطار ١٣٨/٢ ، وقد نقل حميد الله هذه الفقرة : كتاب النبات ، ١٥٦/٢ - ١٥٧ .
- ٤١- اليعقوبي : التاريخ ، ١٣١/١ .
- ٤٢- انظر الفهرست لابن النديم ، ص ٢٥٤ ، وعبد الرحمن بدوي .
- Transmission de la philosophie grecque, p. 58 et 108.
- ٤٣- ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٥٢ ، وكذلك ٣/٣١٣ .
- ٤٤- انظر سزكين في نفس المصدر السابق ، ٣١٤/٣ .
- ٤٥- عن « طبقات الأطباء والحكماء » لابن جليل ، ص ٢١ .
- ٤٦- قد نشر هذه الترجمة قصير ديلار (C. Dublar) في الجزء الثاني من أطروحته :
"La Materia Medica de Dioscorides : transmission medieval y renacimiento" por Cesar E. Dubler (6 vol.) Iereed, Barcelona - Tetuan, 1952 - 1959.
- ٤٧- نذكر من تلك المصطلحات - مستخرجة من طبعة ديلار - مثلا : اسارون (ص ١٨) اصبالاتش (ص ٢٩) ، اغلوخن (ص ٣١) ، الانيون (ص ٣٤) ، افاقليس (ص ٨٧) ، اليمون (ص ٨٨) ، افاقيا (ص ٨٦) ، اطا (ص ٩٩) ، اغريالا (ص ١٠٠) الخ ، وكلها أسماء نباتات .
- ٤٨- ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ٤٦/٢ - ٤٧ .
- ٤٩- انظر حول ترجمة الكتاب ومراجعاته وشروحه : « انتقال مقالات ديسقوريدس الى الثقافة العربية : ترجمة ومراجعة وشرح » لابراهيم بن مراد في مجلة « الصيدلي التونسي » ، ٦ (١٩٨٢) ، (ص ص ٤٤ - ٤٨) .
- ٥٠- ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ٤٨/٢ .
- ٥١- نفس المصدر ، ١٣٣/٢ .
- ٥٢- ابن البيطار : تفسير كتاب ديسقوريدوس ، ص ١ ظهر .
- ٥٣- انظر : ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ٣٦/٢ .
- ٥٤- انظر تفصيل الحديث عن تلك الشواهد في : « المصادر التونسية » ، لابراهيم بن مراد : ١٢٦/١ - ١٢٨ .
- ٥٥- ابن الجزار : كتاب الاعتماد ، ص ١١٣ ظ - ١١٤ و ، وانظر نص هذه المقدمة محققا في بحثنا « المصادر التونسية » ١٣٢/١ - ١٣٣ .
- ٥٦- عدد المواد المعدنية ٤٥ ، أما بقية المواد وعددها ١٤ فمختلفة الانواع . والملاحظ أن عدد الأدوية التي تحدث عنها ابن الجزار قليل اذا قيس بما انتهت اليه معارف عصره ، ولكن ذلك كان منه متعمدا ، فهو لم يتحدث عن الأدوية الحيوانية لأنه قد خصها بكتاب مستقل ولم يتحدث عن الأغذية ضمن الأدوية النباتية لأنه ألف فيها كتابا هو « مصالح الأغذية » وقد أوجز هو بنفسه أسباب اختصاره في كتابه بقوله : « واقتصرنا من كثير على قليل لوجوه : أحدها حب الاختصار وترك الآثار ، والثاني أن أينا ذكرنا الأدوية التي هي مجهولة في بلدان العرب وإن كانت عند أطباء العجم معروفة لقلة متفقتنا نحن بذلك ، والثالث أن ما كان منها مشهورا معروف والقول فيه يسير » - الاعتماد ص ٢١٦ وجه .

٥٧- انظر مثلاً حديثه عن منافع « السوسن » (ص ص ١٥١ و - ١٥٢) و « السقمونيا » (ص ص ١٧٨ و - ١٧٩ و) ،
و « الفار » (ص ص ١٨١ و - ١٨٢ و) و « الكرفس » (ص ص ١٩٩ ظ - ٢٠١ و) « اليتوعات » ، (ص ص ٢٠٨ و - ٢٠٩ و) .

٥٨- ابن الجزار : كتاب الاعتماد ، ص ١٢٩ ظ .

٥٩- نفس المصدر ، ٢٠٢ و .

٦٠- انظر مثلاً : « الاشقيال » ص ١٦٢ و ، و « الحرف » ، ص ٢٠٤ و .

٦١- مثل « الغيري » ، ص ص ١٥٠ و - ١٥٠ ظ .

٦٢- مثل « الزراوند » ، ص ١٤٤ و .

٦٣- مثل « الابهل » ، ص ١٧٤ و .

٦٤- مثل « الخطمي » ، ص ١٦٣ و .

٦٥- مثل « لسان العمل » ، ص ١٤٢ ظ ، و « الغرغوع » ، ص ١٥٩ و « القنطاريون » ص ١٦٣ و ، و « حي العالم » ص ١٨٩ و .

٦٦- مثل « السوسن » ، ص ص ١٥١ و - ١٥١ ظ ، و « البسمام » ص ١٥٣ و ، « الرازياسنج » ص ١٦٦ ظ ، و « السذاب » ، ص ٢٠٤ و .

٦٧- مثل « السعتر » ، ص ١٠٤ ظ ، ويضيف اليها صنفارابعا هو « السعتر الكرمانى » .

٦٨- مثل « الكرفس » ، ص ص ١٩٩ ظ - ٢٠٠ و ، والبستاني منه صنفان ، ثانيهما ارق واصفر من الاول .

٦٩- مثل « الهنديام » ص ١٣٦ ظ .

٧٠- مثل « الينوس » ص ١٦٧ .

٧١- مثل « اليتوع » ، ص ٢٠٨ و ، ٢١٠ و .

٧٢- ديوسقوريدس : « المقالات الخمس » ، ص ص ٣٦١ - ٣٦٤ .

٧٣- ابن الجزار : كتاب الاعتماد ، ص ص ٢٠٨ و - ٢١٠ و .

٧٤- لم يبق - حسب علمنا - من اصل الكتاب الا النصف الاول ، من حرف الالف حتى نهاية حرف الكاف حسب الترتيب الابدعي ، ويوجد لدينا منه صورتان شمسيان لمخطوطتي الخزانة العامة بالرباط (رقم ق ١٥٥) ومكتبة اسنر في مونريال بكندا (رقم ٧٥٠٨) والمخطوطة الاولى تنتهي بنهاية حرف الزاي والثانية هي التي تنتهي بنهاية حرف الكاف . وقد وصفنا هاتين المخطوطتين وحققنا منهما مقدمة الكتاب في بحثنا « أبو جعفر أحمد الغافقي في كتاب الادوية المفردة ، دراسة في الكتاب وتحقيق لمقدمته » في مجلة « الصيدلاني العربي » (دمشق) و ٢ (١٩٨٧) ، ص ص ٧٠ - ٨١ . ويوجد للكتاب أيضا مختصر كامل وضعه أبو الفرج غريغوريوس ابن العبري (ت : ١٢٨٦/١٢٨٦) وقد حقق منه ماكس مايرهوف وجورج صبيحي وترجموا الى الانكليزية العروف الستة الاولى من الالف حتى نهاية حرف الواو .

The Abridged version of "the book of simple drugs" of Al-Ghafiqi translated and published by Max Mayerhof and G. P. Soghy, 1st ed, Cairo, 1932-1940 (4 vol).

٧٥- يقول الغافقي في ذلك : « ومن نظر في كتبهم وجد فيها من الاختلاف ما لا مزيد عليه حتى يتعجب ولا يعرف الحق من الباطل . وترى أكثرهم متبعين بعضهم بعضا مقلدين في غلطهم لأقدمهم ، اذا غلط واحد منهم رأيت جماعة تتبع غلطه وتخطئ بغطئه وهذا دليل على أنهم لم يكتبوا ما كتبوه في كتبهم بيعث وطلب ولكن انتسخ بعضهم ممن تقدمه من كتابه نسخا ، فما أخطأ فيه تابعه على خطئه وما أصاب وافق فيه معه ، فليس ينبغي أن يلام أحدهم ان أخطأ ولا يحمى ان أصاب . بل ينبغي أن يلام الكل منهم لوما واحدا على توانيهم في البحث وقلة فحصهم على الحقائق (٠٠٠) ومنهم من غلط في الجمع بين الأقاويل كما فعل ابن واقد حيث يجمع بين كلام ديستوريدوس في دواء ويضيفه الى كلام جالينوس في دواء آخر وهو يظن أنهم واحد . وهذا الى ما حرف من كلام جالينوس وإفساده وأخرجه

عن معناه وأساء العبارة عنه وصحف عليه مما يطول ذكره . ومنهم من يكذب كما فعل ابن سينا في مواضع كثيرة من أدويته حيث يحكي عن ديستوريدوس وعن جالينوس ما لم يقلوه . وبالجمل ما من أحد تكلم في أحد هذين الغرضين المذكورين في صدر هذا الكتاب الا وقد غلط الغلط الفاحش ، من الرازي الذي كان أولهم الى زماننا هذا « - الأدوية المفردة ص ٢ - ٣ (من مخطوطة الرباط) » .

٧٦- قسم الغافقي كل باب من أبواب كتابه الى قسمين : الأول علمي يذكر فيه الأدوية ومنافعها ، والثاني لغوي تفسيري يشرح فيه الأسماء الواردة على ذلك الحرف في متن كتابه . وأغلب الأسماء المفسرة من اليونانية ، فالعدد الجملي للمصطلحات المفسرة في الأقسام التفسيرية من أبواب الكتاب الأولى (١ - ز) يبلغ ١٤٨٨ منها ٦٦٥ مصطلح يوناني . أما البقية فمصطلحات عربية وفارسية وهندية ولاتينية .

٧٧- أشار الى ذلك في مقدمة كتابه بقوله « ولحققت على ذلك أيضا (أي الأدوية التي تحدث عنها سابقوه) بعض الحشائش الموجودة عندنا التي يستعملها أهل بلادنا مما لم يذكرها أحد ممن تقدمنا » - الأدوية المفردة ، ص ٤ .

٧٨- الغافقي : الأدوية المفردة ، ص ٦٠ .

٧٩- نفس المصدر ، ص ٦٤ .

٨٠- نفس المصدر ، ص ٦٤ .

٨١- نفس المصدر ، ص ٦٧ .

٨٢- نفس المصدر ، ص ١٥٥ ، وقد ذكره ضمن حديثه عن « البهم » .

٨٣- نفس المصدر ، ص ٧٦ .

٨٤- نفس المصدر ، ص ١٨٦ .

٨٥- نفس المصدر ، ص ١٨٧ .

٨٦- نفس المصدر ، ص ١٨٧ .

٨٧- نفس المصدر ، ص ٣١٠ .

٨٨- نفس المصدر ، ص ٣٢٤ .

٨٩- نفس المصدر ، ص ٨ .

٩٠- نفس المصدر ، ص ٦٣ .

٩١- نفس المصدر ، ص ٨٣ .

٩٢- انظر مثلا حديثه عن « الاميليس » و « اذن الأرنب » و « الأطرمالة » و « البلخنة » و « البشنة » و « البدد » و « البريئة » . وهذا مثال من مادة « اطرمالة » هيونيات له ساق تهلو نحو الذراع ، ليس عليها شعب ، وله ورق في أربعة صفوف متوازية ، والورق يشبه ورق الشهدانج الا انه أصغر منه بكثير وله سنبله نحو شبر منطلومة مرصفة بغلف ملتصقة بعضها فوق بعض مرتفعة والخلف مدورة مفتوحة الأفواه في شكل غلف البنديق التي يكون فيها البنديق الا انها أصغر بكثير داخلها ثمر كالبنديق أيضا في شكله وهو في قدر الحمص في داخله بزر دقيق جدا أحمر الى السواد وعلى أعلى النبات لزوجه تدبق كالعسل وله زهر أبيض دقيق وربما كان أصفر ونباته في الأرض الجذبة والقفر . وبزر هذا النبات يكتحل به فينفع من الجرب والسلاق ومن ابتداء الرمد البارد « - الأدوية المفردة ، ص ٦٤ - ٦٥ .

٩٣- انظر مثلا حديثه عن الصنفين الأول والثالث من الاسارون ، الصف الثاني من الاشنان .

٩٤- قد ألف أبو العباس النباتي كتابا في نقده سماه « التنبيه على غلط الغافقي » ذكره ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة ، ٥١٣/١ ، وابن الخطيب في الاحاطة ٢١٢/١ ، وانتقده ابن البيطار في مواضع كثيرة من كتابه « الجامع » انظر مثلا : ٤٠/٢ ، ٧٧/٢ ، ١٧٣/٣ و ٧٥/٤ .

٩٥- بذلك سماه ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء ، ١٣٣/٢ ، وبذلك سمي في بداية كتابيه « التفسير » ، س ١ ظ و « الإبانة والاعلام » ص ١ ظ .

٩٦- بذلك سمي في بداية كتابه « الجامع » ١/١ .

٩٧- ابن أبي أصيبعة : العيون ، ١٣٣/٢ .

٩٨- نفس المصدر ، ١٣٣/٢ .

٩٩- ابن البيطار : الجامع ، ٣/١ .

١٠٠- نفس المصدر ، ٢٦/١ ، ٤٠/٢ ، ٤٥/٢ ، ١٣/٣ ، ٨٦/٤ ، ١٠٥/٤ .

١٠١- نفس المصدر ، ١٧٣/١ .

١٠٢- نفس المصدر ، ١٤٤/٣ ، ٢٠١/٤ .

١٠٣- نفس المصدر ، ١٦/١ ، ٤٠/٢ ، ٨٢/٤ .

١٠٤- نفس المصدر ، ١٦٨/١ .

١٠٥- نفس المصدر ، ١٤٤/٣ ، ٢٠١/٤ .

١٠٦- نفس المصدر ، ٢٠/١ ، ٤٩/١ ، ١٧٣/٣ .

١٠٧- نفس المصدر ، ٤٠/٢ .

١٠٨- نفس المصدر ، ١٦/١ ، ١٤٣/١ ، ٤٠/٢ .

١٠٩- نفس المصدر ، ٩١/١ ، ١٤٨/١ ، ٤٠/٢ ، ٤٥/٢ .

١١٠- نفس المصدر ، ٥١/١ ، ٩٢/١ .

١١١- راجع التعليق ٩٤ .

١١٢- انظر في الجامع : ١٦/١ ، ١٤٣/١ ، ٤٠/٢ ، ٦٨/٣ ، ١٧٢/٣ .

١١٣- على صفحة هذا الكتاب الاولى عنوان آخر اعم هو « الابانة والاعلام بما في كتب المفردات من الاغاليظ والاهام » ولكن التسمية الاولى هي الصحيحة لانها مذكورة في الصفحة الاخرة من الكتاب ثم لان ابن البيطار نفسه قد ذكره بهذا الاسم في مادة « حند قولى بري » في كتاب « الجامع » ، ٤٠/٢ ، و « المنهاج » هو « منهاج البيان فيما يستعمله الانسان » .

١١٤- انظر « الجامع » ١٦/١ ، ٢٦/١ ، و « الابانة » ص ١٥ - ١٦ .

١١٥- الجامع ، ٤٠/٢ و ١١٦/٤ ، والابانة ، ص ٢٧ - ٢٩ .

١١٦- الجامع ، ٩٧/٣ و ١٤٤/٣ ، والابانة ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

١١٧- يقول في ذلك : واعلم ان العالم اولى الناس بالثبوت والاحتياط لنفسه ولغيره ، وقد قالت الحكماء : لا تقال زلة العالم لانه يزل بزلته العالم « الجامع » ، ٤٠/٢ .

١١٨- ابن البيطار : الجامع ، ٤/١ .

١١٩- نفس المصدر ، ٢٢/١ و ١١٢/٤ .

١٢٠- نفس المصدر، ١٢٢/١، وقد ذكر البهش قبله أبو حنيفة (كتاب النبات ٤٧/١، المادة ٧٣) لكن البهش عند أبي حنيفة هو « المقل ما دام وطبا وشجره الدوم » .

١٢١- ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، ١/٥١٢ - ٥١٣ .

١٢٢- Leclerc : Histoire de la medecine arabe, 2/246.

وكتاب فرسكال المشار اليه هو "Flora A Egyptica - Arabica" Hanniae 1775 .

١٢٣- الامثلة الدالة في هذا المعجم على تجاهل واضعيه أعمال القدماء من العلماء العرب كثيرة نكتفي بذكر نوعين منها :
أولهما الميل فيه الى تعريب مصطلحات أعجمية قد انتهت القدماء الى ايجاد مقابلاتها العربية او المعربة ، من ذلك تعريبهم مصطلح « Allium » بـ « اليسوم » (ص ٧) عوض « ثوم » ومصطلح « Arum » بـ « اروم » (ص ١٥) عوض « لوف » و « Cassier » بـ « كاسيا » (ص ٣٤) عوض « سنا » و « Galbanam » بـ « جلبانون » (ص ٨٧) عوض « خلباني » و « Guaiacum » بـ « جياك » (ص ٩٨) عوض « عود الانبياء » أو « عود الصليب » و « Heliotrope » بـ « هيليوتروپ » (ص ١٠٢) عوض « رقيب الشمس » أو « اكرار » أو « تنوم » أو « شجرة اليمام » أو « صامريوما » أو « حشيشة العقرب » - وقد وردت هذه المصطلحات كلها عند ابن البيطار في كتاب « الجامع » - و « Solanum » بـ « سولانم » (ص ١٣٨) عوض « مفد » و « Sorbus » بـ « سوريس » (ص ١٣٩) عوض « غبيراء » و « Orobo » بـ « اروبس » (ص ١٤٩) عوض « كباد » أو « Pamplemouses » بـ « ليمون هندي » و « Pyrethre » بـ « بيرثيرم » (ص ١١٦) عوض « عافقرحاً » ٠٠٠ الخ ، وثانيهما الميل الى تعريب مصطلحات أعجمية معرفة من مصطلحات عربية بالفاظها الأعجمية الحديثة دون اعادتها الى أصولها العربية ، من ذلك تعريب مصطلح « Laque » بـ « لاق » (ص ٩٨) وهو محرف من العربية « لك » و « Caquiller » بـ « كاكلي » (ص ١٧٨) وهو محرف من العربية « قاقلي » و « Sumac » بـ « سماك » (ص ١٩٢) وهو محرف من العربية « سماق » و « Usnea » بـ « باسنيا » (ص ٢٠٢) وهو محرف من العربية « أشنه » ٠٠٠ الخ .

★ ★ ★

مصادر البحث ومراجعته

أ - العربية :

- ١ - ابن أبي أصيبعة (موفق الدين) : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » تحقيق أوغست مللر ط ١٠ ، القاهرة ، ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م (جزء آن) .
- ٢ - ابن البيطار (أبو محمد عبد الله بن أحمد) : « كتاب الابانة والاعلام بما في المتهاج من الخلل والاهام » مخطوطة مكتبة الحرم المكي رقم ٣٦ (١) طب (٨٠ ورقة) .
- ٣ - ابن البيطار : « تفسير كتاب ديسقوريدوس » مخطوطة مكتبة الحرم المكي رقم ٣٦ ، (٢) طب ، (٣٨ ورقة) .
- ٤ - ابن البيطار : الجامع لمفردات الادوية والاغذية ط ١٠ ، بولاق (القاهرة) ١٢٩١ هـ / ١٨٧٤ م (أربعة اجزاء في مجلدين) .
- ٥ - ابن الجزار (أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد) « كتاب الاعتماد في الادوية المفردة » مخطوطة المكتبة الوطنية بالجزائر ، قطعة خامسة ضمن مجموع ، رقم ١٤٧٦ (من الورقة ١١٣ ظ - ٢١٦ و) .
- ٦ - ابن جليل (أبو داود سليمان بن حسان) : « طبقات الأطباء والحكماء » تحقيق فؤاد سيد ، ط ، ١ بالقاهرة ، ١٩٥٥ (١٣٨ ص) .

- ٧ - ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله) : « الاحاطة في أخبار غرناطة » تحقيق عبدالله عنان ، نظرنا في الجزء الأول ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
- ٨ - ابن عبد الملك المراكشي (أبو عبد الله محمد) : « كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » نظرنا في السفر الأول ، تحقيق محمد بن شريفة ط ١ ، بيروت ، (بنون تاريخ) .
- ٩ - ابن مراد ، (إبراهيم) : « المصادر التونسية في كتاب » الجامع « لابن البيطار » بحث صدر في مجلة « الحياة الثقافية » (تونس) ، ٨ (١٩٨٠) ص ص ١١٧ - ١٥٨ ، ١٠ (١٩٨٠) ، ص ص ١٠٢ - ١٤٤ .
- ١٠ - ابن النديم (محمد بن اسحاق) : « الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم » ، تحقيق غوستاف فلوغل ط ١ ، ليبزيغ ١٨٧٢ (٣٥١ ص نص عربي + ٣٥١ ص تعليقات ومقدمات وفهارس) .
- ١١ - أبو حنيفة الدينوري (أحمد بن داود بن وند) : « كتاب النبات » الجزء الأول (١ - ٣) تحقيق برنار لوين ، ط ١٠ ، لينن ، ١٩٥٣ (١٥ - ٢٣٦ + ٥١ ص) ، والجزء الثاني : (س - ي) ملتقطات ما نسب اليه عند المتأخرين . اعتنى بجمعها محمد حميد الله ، ط ١٠ ، القاهرة ١٩٧٣ (٤٤٧ + ٥٧ ص) .
- ١٢ - الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قريب) : « كتاب النبات » تحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، ط ١٠ ، القاهرة ١٩٧٢ (٢٣ + ١١٠ ص) .
- ١٣ - ديوسقوريدس (بدانيوس - العين زربي) : « المقالات الخمس وهو « هيولى الطب » وترجمه اصطفى بن بسيل واصلاح حنين بن اسحاق ، تحقيق قيصر دبلار والياس تراس ، ط ١٠ ، تطوان - برشلونة ، ١٩٥٧ (٦٥٦ + ١٨٠ ص) .
- ١٤ - الغافقي (أبو جعفر أحمد بن محمد) : « كتاب الأدوية المفردة » مخطوطة الخزنة العامة بالرياض ، رقم ق ١٥٥ (٢٠٠ ورقة) .
- ١٥ - المقرئ (أحمد بن محمد - التلمساني) : « نفع الطبيب من غصن الأندلس الرطيب » . تحقيق احسان عباس ، (في سبعة أجزاء) نظرنا في الجزء الثاني ، ط ١٠ ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ١٦ - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : « معجم مصطلحات علم النبات » ط ١٠ (لم يذكر الموضوع) ، ١٩٧٨ (٣٩٧ ص) .
- ١٧ - نصار (حسين) : « دراسات لغوية » ، ط ١٠ ، بيروت ، ١٩٨١ ، (٢٣٥ ص) .
- ١٨ - اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) : « التاريخ » ، ط ٠ ، بيروت ١٩٧٠ (جزء آن) .

★ ★ ★

ب - الأعجمية :

- 19 — Badawi (Abdurrahman) : "La transmission de la philosophie grecque au monde arabe". Iereed, Paris, 1968 (199 p.).
- 20 — Leclerc (Lucien) : "Histoire de la medecine arabe", Iereed, Paris, 1876 (2 vol.).
- 21 — Sezgin (Fuad) : "Geschichte des Arabischen Schriftums" Iereed, Leiden - Brill 1967-1974 (5 vol.).